صبيحة شبر

نأيُكَ وأوجاعي

رواية

أمل الجديدة
طباعة . نشر . توزيع

نأيُكَ وأوجاعي

نأيُكَ وأوجاعي



(١)

(......)

وانت على نأيك يريدون ابعادك عني، ما ان انهي اشغالي الملقاة على كاهلي حتى اتطلع الى لقياك، أنبئك هموما كبيرة لا قدرة لي على احتمالها، واحدثك عن اوجاع بت لا استطيع مواصلة فكرة انني قادرة على الصبر حتى اتمكن من تجاوزها، احداث كثيرة مرت بي ايها الحبيب البعيد وانا امني النفس انني سوف اقتدي بك واستمد منك بعض القوة والشجاعة لتحمل هذه الأعباء التي تلقى على عاتقي على الدوام، وأسأل نفسي:

- لماذا انا وحدي من يحملونها أعباءهم؟

أتذكر ابتسامتك وانت تحاول ان تغرس في القدرة على تحمل الصعاب واجتياز العراقيل:

- دعيهم يضعون الصخور في طريقك؟ -
- ولماذا انا من يحملونها احجارهم؟ -
- هذا اعتراف ضمني انك الأقوى والأكثر تحملا ... -
- والى متى؟
- حتى تعترفي بلسانك انك ما عدت تتصفين بالشجاعة التي يحاولون وأدها... -

اتذكر كلماتك هذه وانت تحاول ان تغرس شتلات القوة في اعماق نفسي، أستجيب لكلماتك، وتسحرني ابتسامتك، وانا متفائلة انه بإمكاني ان اكون مثلك، وان استعير بعض خلالك، وألا ادع

الهزيمة تقترب من عقلي وقلبي فتصيبهما بالعقم وتقضي على تماسكهما وتسلبهما الاصرار، ذلك الاصرار الذي نتطلع ان نتسلح به، كم من النفوس تساقطت في منتصف الطريق لأنها لم تتخذ للأمور أهبتها، ولم تستعد لعظائم الأفعال، وما هي العظائم يا حبيبي، تلك التي تملأ النفوس بالشعلة الوهاجة وتجعلها تتقدم الصفوف وهي تئد كل بذور الشعور بالفشل، التي كثيرا ما يحاول الناس اصدقاء و أعداء وضعها في طريقنا، كلماتك تنير لي الطريق:

- حاولي الا تريهم خوفك .. --
- ألم تقل لي ان الأقوياء لا يخافون؟ -
- الخوف موجود فينا جميعا ..
- وكيف يمكنني الا اخاف؟
- بان تحاولي الا تظهري الخوف الموجود في أعماقك، الخوف طبيعة انسانية، لكننا نحاول ان نظهر امام من لا يحبنا اننا قد ابتعدنا عن الخوف وتغلبنا عليه...
- كلماتك شموع تبدد دياجير الظلام الذي يحاولون ان ينشروه في طريقي الوعرة، ارسم الابتسامة على وجهي وامرن نفسي كي لا تظهر جزعها وأسير في الطريق الذي مهدته لي يا حبيبي، احاول السير وانا مرفوعة الرأس واثقة من نفسي ومن قدراتي التي زرعتها في اعماق نفسي، انت بعيد بعيد وانا الظمأى الى كلماتك التي تتدفق منها القوة وتنبعث منها القدرة، كنت ضعيفة وانت انتشلتني من احساسي بالضعف وجعلتني أعتقد انني اقوى من كل الأكاذيب والافتراءات التي يريدون بها ان تعطل عزيمتي

(٢)

تهيأ الأستاذ صادق عبد الله لمغادرة المنزل، بعد ان ارتدى بدلته الجديدة، وضع العطر الغالي على وجهه، وانتعل حذاءه الأسود الثمين، عنده موعد مع مسؤول كبير، طالما داعبه أمل الالتقاء به، راوده الحلم كثيرا، تمنى ان تتاح له الفرصة كي يرى من دل الناس لأول مرة كيف يخرجون على معلميهم ووالديهم وعلى كل المثل التي تعارفوا عليها، وأصبحت قوانين، لا يمكن لأي امرىء خرقها، لم يبال الاستاذ صادق وهو يسير في طريقه بمن كان يحب تحيته، الآنسة زينب اعتادت ان يلقي عليها التحية كل صباح، فما باله هذا اليوم مشغول لا يرى احدا؟ فكرت زينب ان تقترب من صديقها، ولكنها خشيت ان يثير اقترابها غضبه، تعودت الغضب الكبير الذي يبدر من الاستاذ صادق، تقول السيدة اخته:

- لا تزعلي يا ابنتي، اعتدنا ان يثور علينا أخونا صادق كل مرة ...

- لماذا يثور وانا لم افعل ما يستوجب الغضب؟

- هذا طبعه، عليك ان تعتادي عليه ...

- لماذا علي ان اعتاد؟

- ما دمت ترغبين ان ترتبطا معا وتعيشا في بيت واحد .. المرأة عليها ان تعتاد على طبع الرجل ..

- في اسرتنا امي وابي متفقان لا يرفع احدهما صوته بوجه

الآخر ..

- هذا في منزلكم، اغلب منازلنا نجد المرأة تتحمل وتصبر، لن اخبر صادق بما قلت، لئلا يظن انك لا تحبينه!

- هو يعلم انني احبه!

- اعتادي على طبعه اذن ولا تتمردي!

تصمت زينب، وتجد انه لا فائدة ترجى من مواصلة الكلام، فالسيدة اخت صديقها لم تعرف كيف يمكن لامرأة تحب أخاها و ترغب بالتمرد عليه في نفس الوقت...

تفكر زينب الا تثير المتاعب لنفسها ان اعلنت انها ليست مقتنعة بطريقة صديقها بالتصرف معها، فلتؤجل التصريح بمخاوفها الى وقت مناسب، عل كلامها لا يثير غضبا كبيرا من الرجل الذي ارتضت ان ترتبط به ..

تردد ام زينب وابوها دائما :

- انت فتاة متعلمة، تعبنا في تربيتك وصديقك صادق يبدو انه متسلط / يمكنك ان تضعي حدا لعلاقتكما، قبل الارتباط بزواج فاشل .....

(٣)

استمع الى النصائح التي يسدونها للنساء وانا اتعجب لأمرهم، ألم تعلمنا يا حبيبي الا فرق بين الجنسين! وان كلاهما من البشر ما يصح لأحدهما ينطبق على الآخر! وجدت العالم يا حبيبي لا يسير وفق المبادئ التي نشأنا عليها، وجدت القوي يفترس

الضعيف، واغلب الرجال ينكلون بالمرأة ويسلبونها الحقوق التي حصلت عليها بالنضال والمثابرة، علمتنا امورا صائبة، لا اراها في مجتمعنا الذي يسير عكس الناس في العالم كله! لماذا تضطر المرأة على السكون دائما؟ ولماذا ينصحونها ان تواصل الصبر المر مذاقه؟ من اجل ماذا تتخلى النساء في بلادنا عن كل شيء؟ وقد تعلمن واشتغلن واثبتن انهن مؤهلات للعيش الكريم؟ انت الحبيب الذي كان يمدني بالقوة واني قادرة على مواجهة الأفكار السقيمة قد ابتعد عني! تركني وحيدة في عالم لا يحب سوى المستبدين المعتدين على غيرهم؟ ولماذا يتجبر الأستاذ صادق على الناس اجمعين؟ أليس الاجدر به ان يكون لطيفا مع المرأة التي احبته بملء قلبها التواق الى العشق والمحبة؟ وان كان الحبيب جلفا مستبدا قبل الزواج، فكيف يصبح بعد الارتباط بعقد يتفق الجميع انه يملك المرأة للرجل؟ يصير كل ما حصلت عليه النساء بنضالهن وتضحياتهن وعملهن المتواصل الدؤوب ملكا للبعل الذي صيرته الواحدة منهن مالكا لأمرها، يفعل بها ما يشاء ويذيقها مر الهوان؟ اباء يتعبون ويقدمون لأبنائهم وبناتهم الوانا من التقدير والاحترام ويدربونهم على حب العمل ومعاملة الناس بما يستحقون، وما ان تظن المرأة انها قد ادركت مباديء الحياة ووثقت انها قادرة على الدفاع عن القيم التي رضعتها، وقبلت الارتباط بالرجل الذي توهمت انه يحمل لها حبا كبيرا، كما هي تحمل له بين ضلوعها، واذا الرفيق الذي ارتضت به ان يكون صاحبا مدى الحياة يكشر عن أنيابه - قبل ان تعرف المرأة ان كل ما تطلعت اليه في البيت

الجديد سـراب! احـدثك بمتـاعبي يـا حبـيبي وانـت تغـرس في نفسـي شـتلات القـوة بـان مـا نجـده مـن تـردي في القـيم وتراجـع في الخلـق نستطيع ان نضـع لـه حـدا ، ان واصلنا النضـال! اي نضـال يـا حبـيبي بمقـدورنا ان نواصـل، وعالمنـا يحكـم مـن قبـل المسـتبدين حتـى الهاديء من البشـر والـذي يسبغ عليـه النـاس حسـن الصـفات، نجـده ظالما مع المرأة، لا يسمع ما تقول ولا يستجيب لما ترجو! هـل كتب علـى النسـاء ان يتوسـلن وان تهـدر قـواهن في الرغبـة في اقنـاع الصـاحب؟ امـور كـثيرة يـا حبـيبي اجـد نفسـي عـاجزة عـن فهمهـا ، وانت تستمع لي بكل الحب الذي عهدتـه منك،وتحـاول ان تنتشـلني مـن شـعور بالهزيمـة يـتملكني،حين اجـد صـاحب الحـق يتخـاذل والظـالم يتجـبر ويسـتبد بالبشـر؟ تحـاول ان تقـنعني ان العـالم فيـه الخـير والشـر، وان الخـير ينتصـر ان كـان انصـاره اقويـاء يتصـدون للظلم ويدافعون عن المحـرومين، نجحـت مـرارا في اقنـاعي ان الخـير قد ينتصر بعزيمة اهله وناسه، ولكني حين ارى الشر مكشرا عن انيابـه، يصـيبني الـتردد وأتسـاءل هـل بمقـدورنا ان نهـزم الشـر، في عالمنا المملوء بكل انواع الذل والمهانة؟ حين تكـون قربي ارى نفسـي وقد تسلحت بالقوة وانني قادرة على ان اكون نفسـي وليس شخصـا اخر، وما ان تبتعد عني بسبب اشغالك الكثيرة، حتى اجد الجميع وقد تركوني وحيدة لاحول لي ولا قوة، فكيف لي ان ابقـي قـوتي داخل نفسي وألا ادعها تتبدد؟

(٤)

جـاء خـالي مـن الأريـاف واسـتوطن غـرفتي، الـتي كـان والـدي يحرص على منحي اياها ، حـين ننتقـل الى مسـكـن جديـد ، يحـرص ابي على منحي احدى الغرف الصغيرة الموجودة في المنـزل المستأجر الجديد ،وقـد تكـون غـرفتي في الـدرج او في الطـابق العلـوي، المهـم انها غرفة بعيدة عن الضوضاء:

- سميرة مجتهـدة وهـي الأولى علـى صفها دائمـا ، لهـذا يجـب ان تكـون لهـا غرفتهـا الخاصـة كـي تراجـع دروسـها وتـؤدي التمـارين المطلوبة منها ، وتقرأ دروس اليوم التالي....

جاء خالي ولم تجد الأسـرة غرفـة لتعطيـه اياهـا الا الغرفـة الـتي خصصت لـي، اضـطررت الى المبيـت في غرفـة شـقيقاتي، واسـتعمل غـرفتي في النهـار كـي احفـظ دروسـي، وفي الليـل اهـرع الى غرفـة شقيقاتي لأنام فيها ، لم اكن احب خـالي، فهو اولا قد سلب مـني الغرفـة الـتي أشـعر انـني اسـتقل فيهـا لوحـدي وافكـر بـدون اي املاءات من غيري، اشعر انني حرة، لا اردد افكـار الآخـرين كمـا يطلـب عـادة مـن البنـات اللاتـي هـن في مثـل سـني، سـن الدراسـة الابتدائية، حيث كنت في الخامس الابتدائي، اقرأ كثيرا واكتب ما يحلو لي، وبما يتلاءم مع قناعاتي التي يمكن لتلميذة صغيرة ان تؤمن بها ، وكثيرا ما كـان بعض اقربائي ينتقدون ابي:

- انهـا مـا زالـت صغيرة، لمـاذا تحـرص علـى ان يكـون لهـا فكـرهـا الخاص؟ وهـي لا تملك التجربـة الـتي تؤهلـها كـي تكـون لهـا افكـار

وقناعات؟

يبتسم ابي ولا يجيب القائل المستنكر عادة، لما احظى به من اهتمام، لا يتفق مع سنين عمري القليلة .....

جاء خالي الذي كنت اراه كالطاووس يسير اختيالا واعجابا بنفسه:

- لماذا انت تعجب بنفسك اكثر من الآخرين؟ -
- لأنني افضل من الآخرين، انا وسيم جدا وذكي
- ومن قال انك تتصف بهذه الصفات؟
- وكيف يمكن ان تعرفي وانت ما زلت صغيرة، انا موضع احلام النساء جميعهن -
- بماذا؟
- وكيف يمكنني ان اخبرك؟ انت لا تفقهين ما اقول
- قل لي لماذا تفضلك النساء؟
- لأنني وسيم وذكي
- ربما اخبرتك احداهن انك وسيم، ولكن كيف عرفت انك اذكى الناس جميعا .. -
- لأنني جعلت ابي يرسل لي نقودا وانا طالب..-
- واين الذكاء في هذا؟
- كنت استلم نقودا من منحة من حكومة بلادي التي ارسلتني الى الخارج للدراسة ومن ابي الذي كثيرا ما كان يشكو كذبا انه لا يملك النقود..
- ولكنك لست ذكيا بهذا وانما انت استغلالي وعاق

غضب خالي كثيرا مما قلت له واعتبر كلماتي قلة ادب مني واخذ يتحين الفرص لاتهامي بما ليس في...

(٥)

لا أحب المغرورين، والذين يرون انفسهم افضل من الناس اجمعين، هؤلاء الذين يعاملون الناس باستصغار واحتقار، غامطين حقهم في معاملة كريمة تليق بإنسانيتهم، لا اجد في نفسي ميلا لتقبلهم، علمتني يا حبيبي ان الناس سواء وحين كنت أسألك:

- كيف يكون الناس سواء وفيهم الذكي والغبي والطيب والخبيث، الكريم واللئيم؟
- يولد الانسان طيبا ولكن عوامل مختلفة تعمل لجعله خبيثا!
- هل خالي طيب؟
- نشأ في بيئة طيبة!
- وهل بقي محافظا على صفة الطيبة؟
- لا ادري يا ابنتي، هو اخ والدتك التي هي طيبة جدا!
- انا لا اجد فيه طيبة!
- لا تتسرعي في الحكم! خالك يحمل بعض الصفات الجميلة!
- وماذا ترى فيه من شمائل؟
- ذكاؤه ووسامته! هو يصف نفسه بهذه الصفات!
- هو مختال مغرور!
- انت حرة في ما ترين!

- هل يمكنني ان اقول له صراحة ما اجده فيه؟
- احتراما لأمك لا تذكري رأيك صراحة امام الآخرين!
- امي تؤمن بحريتي فيما اقول واعتقد!
- بعض الآراء لا نذكرها صراحة، لأنها تؤذي أصدقاءنا ومعارفنا! وما الفائدة التي نجنيها حين نقول لأحد الأشخاص انك غبي لا تفهم؟ قد نحول الصديق عدوا بصراحتنا التي فاقت الحد فصارت وقاحة، لا نحب ان يتكاثر الاعداء الحاقدون من حولنا!
- هل علينا ان نكذب؟
- حين لا نواجه الناس بحقيقتهم التي لا تسيء لنا بشيء، فلا يعني هذا اننا كاذبون!

ومضيت يا حبيبي تبين لي الفروق واضحة بين النفاق والمجاملة، واننا مجتمع يحرص على الاخلاق الحميدة والتعاون بين افراده لهذا وجب علينا ان نتحلى بالمجاملة، واستطعت ان تجعلني ادرك اننا بحاجة الى ذكر الصفات الطيبة لدى معارفنا لكسب قلوبهم وجعلهم يتغيرون نحو الأفضل، اما ان قلنا لشخص عزيز علينا انك مغرور، فقد يواصل الحرص على هذه الصفة ويصير عدوا لنا ... فأين انت يا حبيبي؟ اشعر ان قوتي قد ضاعت مني! وانني غريبة في ارض لا تؤمن الا بالعنف! لماذا لا يميزون بين الشجاعة والصلافة وبين الصدق والادعاء؟ لماذا اجد الناس وقد آثروا الأشخاص المخادعين؟ ولم يكون الانسان الحليم مدعاة للهزء والسخرية؟ فهل اظل بعيدة ينظر الي الآخرون بانني لاحول لي ولا قوة؟ لم استطع ان اكون مثلك! يا بحرا من الحنان! اشتاق اليك، واشعر ان انهارا من الظلم تحيط بي

وتهزمني! فأظل أتطلع اليك علّ صفاتك الساحرات تنتقل لي!

(٦)

خبـأ الأسـتاذ صـادق منشـوراته السـرية في اعلـى مكـان في السـقف، الـذي صـنع مـن الحصـر المصـنوعة مـن النخـل، اخـبر منظمته الحزبيـة ان المنشـورات في مكـان أمـين، لا يمكـن ان يعلـم بـه مـن كـان يشـاطره السـكن في المنـزل البسـيط الـذي اسـتأجره قريبهم في العاصمة بغداد، لكن الطفلة الشقية الـتي كانـت تحـب ان تطلع على كل الأمور، ولا ترغب ان يظل الشـيء مخبوءا عـن عينيها المتطلعتين، صعدت الطفلة سميرة على الكرسـي وارادت ان تعرف سبب الانتفاخ الموجود في السقف، ولماذا تجد هذا الانتفاخ في مكان واحد، ولم تره في مكان آخـر في غرفتها، تعـرف ان الـورم في السقف لا يمكن ان يكون في الغرف المبنية من الاجر...

مـدت سمـيرة يـدها تحـت السـقيفة، ووجـدت مجموعـة مـن الكتيبات الصغيرة والاوراق، التي لم تعتد على رؤيتها في منـزلهم، فالكتب والجرائد التي اعتادت سميرة ان تراها في منـزلهم موجـودة بكثرة في المكتبات، وكثيرا ما كانت تسارع الى شراء الصحيفة الـتي كـان ابوهـا بفضـل قراءتهـا قبـل ان يعـود الأب وهـو يحمـل مجموعـة مـن الصـحف المتنوعـة المتعارضـة، لأحـزاب سياسـية لم تكن على وفاق، قرأت سميرة مـا مكتوب في النشـرات المخبـوءة، فوجدت ان تلك النشرات كانت نسخا عديـدة لمنشـور واحـد لم تـر مثله في بيتها ابدا، كانت سميرة تستمع الى الاذاعـات الـتي تتخـذ

موقفا مناوئا من نظام الحكم القائم، ولم تجد ذلك العداء مكتوبا الا في الصحف التي وجدتها هذا اليوم، وأثارت تساؤلها، هل يمكن للضيف ان يخبيء منشورات تعادي النظام القائم في منزل رحب به؟ ومنحه احدى غرفه ليقيم فيها؟ ورب المنزل لا يعرف عن النشرات المخبوءة شيئا؟ خشيت سميرة ان يعاقب ابوها على اخفاء هذه المنشورات في منزله، وأخرجتها من مكانها وخبأتها في مكان آخر، وهي تنوي ان تحدث اباها بما رأت، ولكن النسيان اصابها ذلك اليوم، وعاد ابوها من العمل متأخرا، وبعد ثلاثة ايام جاء رجال الامن، لم يكونوا مسلحين، اخذوا الضيف معهم، خشيت سميرة ان يعودوا ثانية، لتفتيش المنزل، والبحث عن الكتب الممنوعة، فقامت بإخراج المنشورات المخبأة وأحرقتها، قالت امها:

- لماذا احرقت الأوراق؟ ومن اين جئت بها؟-
- وجدتها عند الأستاذ صادق وقد خبأها تحت السقف
- كان عليك الا تحرفيها! -
- لماذا؟ خفت على ضيفنا -
- الان نحن في زمن مختلف، لا يحاسبون الانسان على ما يقرأ-
- ولماذا اخذوا الأستاذ صادق؟
- ليس لأنه يقرأ المنشورات، بل لسبب آخر
- وما هو السبب؟ -
- لا أدري
- وهل يؤذونه؟
- لن يسببوا له الأذى، واظن انه سيعود الينا هذا اليوم –

- كيف عرفت يا امي؟-

- اعرف طبيعة من يحكمنا اليوم، لن يعاقبوا احدا على القراءة

(٧)

وجدت ما اثار استغرابي، كثيرا ما اوصيتنا ان نكون صادقين، وألا نخون من وضع ثقته فينا، اكرمت الضيف القادم من مكان بعيد، واويته في غرفة كانت لي، اقرأ فيها وألعب، جهزتها لي بما اريد، مكتبة صغيرة فيها كتب متنوعة من تلك التي اشتريها او يهديها لي احد المعارف الذين يزورون منزلنا، في مدرستي كانت المعلمات يعجبن بقدرتي على الحفظ والقراءة، ويهدينني كتبا كثيرة، كنت اضغط على زر في المكتبة فيخرج منها مكتب صغير، اردتني يا حبيبي ان اكتب عليه ما يعن في فكري وما يخطر على بالي، كما جهزت غرفتي الصغيرة بدولاب صغير احفظ فيه ملابسي، واهديتني مذياعا لأسمع منه ما احب من أغان واعرف عن طريقه ما يحدث في العالم، سريري كان في غرفتي التي منحتموها للضيف الذي جاءنا، هذا الضيف لم يحترم من اكرمه ورحب بقدومه، فخبأ منشورات ممنوعة في سقف الغرفة التي اخذها مني، اخرجت الكتيبات واخذت اقرأ ما فيها، وجدت انها كتيب واحد، كنت اقرأ كل شيء، واستمع الى الاذاعات التي تسب حكومتنا وتلعن اليوم الذي جاءت الينا فيه، اجعل المذياع بصوت عال، يسمعه كل من كان في المنزل ويصل

صوت المذيع عاليا الى اكل انحاء الزقاق الذي استأجرت بيتا لنا فيه، احمد سعيد يسب ويلعن كل الأشخاص الذين كنت احبهم، لم ينصحني احد ان اجعل صوت المذياع منخفضا، كنت تقول انني حرة فيما اسمع، مادامت الشتائم المنطلقة لا تؤثر بي، علمتني الثبات على الموقف والمحافظة على المباديء واننا يجب ان نكون اوفياء مهما حصل، اخرجت المنشورات من تحت السقف ووضعتها في مكان آخر لا يصل اليه الضيف، ولكن حرصي على سلامة من في بيتنا جعلني اقدم على خطوة لم اقم بها سابقا، اشعلت نارا ورميت المنشورات فيها، فكبر اللهب واكل كل ما وضعته، وجاء الضيف معاتبا:

- لماذا احرقت اوراقي؟
- لحمايتك!

نظر لي عابسا وصعد الى غرفتي، وبقي هناك حتى زارنا مجموعة من رجال ثلاثة لم يفتشوا منزلنا ولم يطلبوا ان نريهم الكتب التي منعوها، وغادروا مصطحبين ضيفنا معهم، لماذا جاؤوا؟ وكيف عرفوا ان ضيفنا لا يكن لهم حبا كما نحبهم نحن؟ ومن ادراهم بموقفه المناويء، بقيت اسئلة عديدة لم اجد لها جوابا شافيا، لم اكن اعرف كم سيبقى الضيف معهم؟ امي اخبرتني انهم سوف يطلقونه اليوم ولن يبقوه طويلا، عجبت لرأيها! كيف عرفت ان الضيف سيكون مطلقا في اليوم نفسه الذي اخذوه فيه؟ وقد اعتادت ان يطول الاعتقال سنين عديدة؟ ألم يقبضون عليك مرارا وتظل عندهم فترة طويلة وانت صامد امامهم لا تشي بأصدقائك الحريصين

على ان يكون العالم اجمل! تمنيت كثيرا ان اتصف بعين صفاتك! كنت واثقا انني بمرور الزمن اكتسب قوة كبيرة تجعلني مؤمنة ان الافكار يمكن ان تصنع الجمال وتحقق الآمال!

(٨)

لم أرض ان تعطى غرفتي لمن لا يستحقها، كيف اراجع دروسي وأؤدي التمارين التي أعطيت واجبا لي، ان كنت لا استطيع ان امكث في غرفتي الا وقتا قصيرا، وحين يكون خالي خارج المنزل، وكان لا يبقى بعيدا عن منزلنا الا بعض الوقت، لا يمكنني معه ان اراجع دروسي وأقرأ الكتب التي استعرتها من المكتبة العامة الكائنة في منطقة سكنانا، الكتب الخارجية تستهويني اكثر من كتبي المنهجية التي قررتها لنا وزارة التربية والتعليم، وحين تشرح مدرساتنا الدروس المقررة تطرح علينا السؤال عينه:

- من منكن قرأت كتابا خارجيا؟ -
- انها سميرة، من عادتها ان تقرأ الكتب الخارجية
- وانتن لماذا لا تقرأن؟-
- نحن نجد صعوبة في دراسة الكتب المقررة علينا، كيف يمكننا ان نطلع على الكتب الخارجية؟

تلتفت لي الأستاذة وهي تقول:

- حدثينا بما قرأت..... -

اقوم انا بالتحدث عما قرأت من كتب ومواضيع في مجلات كنت احرص على الاطلاع عليها، واطراء الأساتذة كان يسعدني

اكثر مما اشعر به عند مديحي حين اجيب عن أسئلتهم حول الدروس بإجادة

كنت اتساءل كيف يمكنني ان احتفظ بتقدير استاذاتي لي حين يستوطن خالي غرفتي ويحرمني من القراءة فيها ، اين اذهب لأقرأ كتبي المستعارة؟ و غرف المنزل تتميز بالفوضى التي يثيرها الصغار ، فهم يتحدثون باستمرار وانا أنشد الهدوء

غرفتي كان سقفها من القصب، كنت اضع كرسيا صغيرا واحاول ان اعثر تحت القصب ما يخبئه الخال من كتب لا تتوفر في المكتبات، فوجئت في احد الأيام ان اوراقا ومنشورات تختبيء تحت القصب، حاول خالي الا يراها احد من في المنزل، فخالي كان غير راض مما ألت اليه الأحداث في بلادنا ، وكان يسوءه ان الأمور تسير على غير ما يريد ويشتهي، اخذت الأوراق والمنشورات واحرقتها امام امي:

- ماذا تفعلين يا ابنتي؟

- احرق هذه المنشورات لئلا يعاقبون خالي على أفكار تشتم المسؤولين وتحاول الحط من شأنهم

- ولكن المسؤولين اليوم ليسوا كما كانوا في العهد السابق حين القوا القبض على والدك، لأنه يقرأ الكتب التي لا تتلاءم مع منطلقاتهم الفكرية ...

- كيف هذا يا امي:

- الان لا أحد يعاقب على القراءة، من حق الانسان ان يقرأ ما يشاء دون مساءلة من احد

كانت النيران تلتهم المنشورات وامي تبدي رأيها فيما افعل... شكرني الأقرباء والأصدقاء على حسن صنيعي وانني حاولت ان انقذ خالي من المصير الذي أذاقوه لأبي في زمن النظام الماضي....

(٩)

نقم علي خالي انني احرقت المنشورات التي كانت ستودي به الى التهلكة ، قال لمعارفه:

- سميرة تسيء معاملتي.. -
- كيف يمكنها ان تسيء وهي صغيرة وانت الكبير؟
- انها كبيرة رغم سنها الصغير، انظروا كيف تكون تصرفاتها؟
- لم نجد فيها ما تزعم، هي ما زالت طفلة -
- لماذا تتدخل في شؤوني الخاصة؟
- كيف تدخلت؟ ألم تكن تنوي انقاذك؟
- لماذا تقرأ اوراقي وتطلع على منشوراتي؟

يمضي الخال متحدثا عن تصرفاتي التي زعم انني اسيء اليه بها ،وانا الحريصة على ارضائه ، فهو أخو امي الحنون التي طالما قدمت لي الحب والحنان، وكان خالي لا يرضيه ان تكون اخته حريصة على اسعاد زوجها وبنيها :

- الأولى بأختي ان تعمل على ارضائي، فانا اخوها ، ولكنها تحرص على ان يكون زوجها المفضل دائما بالرعاية والاهتمام....
- ومهما ناقشه الناس ان الزوج يجب تقديمه على الآخرين في

الرعاية الا ان خالي لم يشأ ان يوافقهم على رأيهم:

- انتم لا تريدون ان تتفقوا معي لغاية في نفوسكم المريضة -

يترك المعارف والأصدقاء خالي وينصحونني:

- حاولي التوفيق بين امك وخالك، فهما اخوان
- انا لم اسيء الى خالي فهو عزيز على امي
- نعرف ذلك، ولكننا لا ندري لماذا يتحامل خالك على امك وابيك؟ -

(١٠)

وأنت بعيد عني تتراكم الهموم على نفسي، لا أحد منهم يبالي بقلبي الذي أثخنه المعتدون بجراحاتهم، تنهمر سهامهم مطرا على نفسي المتعبة، انظر اليك متطلعة الى انصاية كما كنت تفعل دائما، ولكن أحلامي الكثيرة سرعان ما تئدها سموم الواقع أانت بعيد عني، لا أحد يبالي بأوجاعي الكثيرة التي تنهك نفسي، حين كنت قريبا لم اكن اشعر بالعجز وقلة الحيلة .ولكنهم عملوا على ابعادك عني، فنجحوا في مسعاهم، وأصبحت ضعيفة لا سند لي يشد ازري، ازورك مرارا واستنجد بك، واخبرك بمؤامرات تحاك ضدي، ولجعلي صامتة لا اخبر احدا بما يهيؤون لي من اعمال ماكرة، لا يمكن لي ان اعرفها او اتقرب منها، احدثك بمتاعبي وانني القوية التي كنت تحرص عليها اصبحت تخشى من كل شيء، تصيبني الحيرة من تبدل حالي وانقلاب امري، هل يمكن ان يصير المرء ضد ماكان عليه في الأمس القريب؟ يجيبني

عقلي ان كل شيء ممكن في هذا الزمان الغريب الذي اصبح فيه الانسان جاهلا بنفسه ... اخبرك يا حبيبي ان خالي لم يعد يبالي بما يجري لي وان كل ما كان يردده من حرص كبير على مصلحتي محض افتراء، لم يسأل عن امي التي كلفها فوق طاقتها، وأرهق حالها بما كان يطلبه من عظائم الامور ..

(١١)

وانا أقرأ كثيرا، التهم الكتب بنهم، ينزعج خالي من عشقي للقراءة:

- سميرة عنيدة -

- لم تفعل سميرة ما يدعو الى غضبك، لماذا تشعر بعدم الرضا من كل تصرفاتها؟

- لأنها عنيدة!

- لم نعرف انها كما تصفها!

- انكم تراعونها على حسابي!

- هي ابنتنا ومن حقها ان نعتني بها!

- وانا اخوك يجب ان تسمعي كلامي!

- ان كان كلامك يتفق مع قناعاتي!

- طلبت من سميرة الا تقرأ كثيرا، فهي تقوم بقراءة كل ورقة تقع عليها عيناها!

- وما السوء في هذا؟ القراءة هواية جميلة تغذي النفس وتنمي المدارك وتزيد المعلومات ...

- سميرة صغيرة وعليها ان تكون مثل زميلاتها!
- هي تحب ان تتفوق، وابوها يريدها الأولى على صفها دائما ...
- انا دكتور واعرف اكثر مما تعرفون انتم ...

يسكت الجميع، يدركون انه لا جدوى من المناقشة، خالي مصاب بداء وبيل، لا تنفع كل العقاقير في شفاء من يصاب به، كل من لا يتفق مع افكاره يتعرض لغضبه، يقول انه يريد ان يقلم اظافر من يبغي له سوءا:

- ومن هؤلاء الذين يسعون للإساءة لك؟
- كلكم! انت وزوجك وابنتك وشقيقاتها واخوها!
- لا داعي ان نتعب انفسنا في جدال عقيم ...

ترتفع الأصوات دون ان نهتدي الى رأي يتفق عليه جميع المتناقشين، ألزم الصمت واجد ان امي تقوم بالتوقف عن الكلام، اخي يضحك ويذهب الى مكان آخر، وخالي يقف أمام المرآة وهو ينظر بخيلاء:

- هل رأيتم احدا يشبهني؟
- بماذا يشبهك؟
- بوسامتي وأناقتي وسعة ثقافتي!
- كيف؟
- انا اصغر دكتور في العراق، سوف احصل على شهادة الدكتوراه في سن صغيرة، فعقلي اكبر من سني كثيرا!
- انت لم تحصل على الشهادة بعد!

- ستكون في يدي قريبا!
- ولماذا انت بهذا التواضع؟!
- هل عدنا الى سخريتكم؟
- نحن لا نسخر منك! بل نشفق عليك!
- انكم تكرهونني وتحقدون على نجاحي وتغارون من عزيمتي! كل خصالي لاوجود لها في اسرتكم المتواضعة والتي لا تعرف معنى الاصرار على تحقيق النجاح ....

يغادر الجميع الى شؤونهم الخاصة، يبقى خالي جالسا يشعر بالغبن ان لا احد يعرف قيمته وانه رجل موهوب لم يأت الدهر بمثله، وان على الجميع ان يقتدي به ويحذو حذوه، فالنجاح لا يدركه الا ذوو العزيمة والارادة القوية والرغبة في الحفر في الصخر ...

(١٢)

كتبت سميرة شعرا اثار اعجاب معلماتها وزميلاتها الطالبات، كل من عرفها يثني على اجتهادها وذكائها، اختارتها مرشدة الصف ان تكون خطيبة المدرسة، تلقي الخطب الحماسية في حفل تحية العلم في صباح كل خميس خشيت بعض المعلمات ان يسيطر على سميرة الخجل كما يفعل احيانا، حين تقوم ببعض الأنشطة التي تعتبر خارج نطاق المنهج المقرر على تلاميذ الدراسة الابتدائية، سرعان ما يزول الخوف من بعض المعلمات اللاتي اظهرن خشيتهن:

- عظيم جدا، انظروا الى سميرة واستمعوا الى خطبتها!
- اعجب لفصاحتها وجمال كلماتها!

- هي مجتهدة في كل الدروس!
- نعم في الدروس المنهجية واللامنهجية!
- عجبا لهذه الفتاة كيف تأتي بمواضيعها؟
- من يقرأ كثيرا يتقن الكتابة اكثر ممن لا يحب القراءة!
- لكنها صغيرة! ما زالت في الدراسة الابتدائية!
- ان واصلت القراءة بتمعن سوف تحرز المنزلة العليا في الحياة حين تكبر!
- ما دامت متفوقة في الرياضيات، ارغب ان توجه للدراسة العلمية، فتفيد البلاد اكثر من اهتمامها بالدراسة الادبية، صحيح انها تحسن الكتابة ..
- امامها العديد من السنين كي تتخصص في الدراسة!
- قد يوجهها ذووها الى الدراسة العلمية رغم تفوقها في الكتابة التعبيرية ....
- قليلون من جمعوا بين المضمارين وخاصة بين الفتيات، كلنا نعرف ما تعانيه الفتاة العراقية من أساليب كثيرة لعرقلة جهودها، والوقوف امام رغبتها في التقدم والازدهار ...
- انها تحبك، فأنت معلمتها الحريصة على مستقبلها!
- ما زال الوقت مبكرا لتوجيهها الى نوع الدراسة، وحين تتخرج سميرة من الدراسة الابتدائية سوف تنساني، هناك الكثيرات ممن عملن على اكتشاف مواهب الفتيات .. وتشجيعهن....
- في الدراسة المتوسطة قد لا تجد سميرة الاهتمام الذي تجده

هنا ، وأخشى ان تتعرض موهبتها للضياع ...

- كم هي فصيحة في كلامها ، تتقن الالقاء .....
- سوف اطلب منها ان تكتب لي كلمة لألقيها في خطبة الخميس القادم!
- سوف اطلب انا ايضا ان تحضر لي كلمة!
- كيف ستكون سميرة ان كانت معلماتها يطلبن منها كتابة الخطب التي يلقينها على مسامع تلميذاتهن!
- لا اظن ان سميرة يصيبها الغرور!
- قد تتعالى على زميلاتها وحتى معلماتها ، ستظن انها افضل منهن، فهي تقوم بكتابة خطبهن، وهن لا يعرفن كيف يمكن كتابة الخطب الحماسية!
- هل نسينا ان سميرة تكتب الشعر ايضا؟
- لا احد يطلب منها ان تنظم له قصيدة ليلقيها في حفل تحية العلم . سميرة فقط تقوم بالقاء القصائد وتثير اعجاب الجماهير!

(١٣)

استشار الأستاذ صادق مسؤوليه في الحزب ان يمنحوه اجرة المنزل الذي سوف يستأجره، بدلا عن منزل اقربائه الذين اعطوه غرفة ابنتهم العزيزة عن طيب خاطر، سأله المسؤول:

- لماذا تريد مغادرة منزل اقربائك وهم كرماء معك؟
- ان ابنتهم لا تحبني ، !
- ابنتهم ما زالت صغيرة ، كن لطيفا معها لتحبك!

- هي صغيرة تتصرف كالكبار!
- سمعنا من مصادرنا الموثوقة انها ذكية ومجتهدة ..
- نعم، هي مجتهدة تقرأ كثيرا، تحفظ المقرر من دروسها وتطلع على الكتب الخارجية ايضا!
- وتعرف امور السياسة والاقتصاد وكل ما يجري في العالم من احداث!
- أبوها من الحزب الذي لا نريده، يمكنك ان تكسب ودها!
- انا لا اطيقها أبدا، فهي صورة مصغرة من أبيها الذي قد يجاملنا، لكن ابنته تقول ما في عقلها بطريقة وقحة! ومن كلماتها استطيع ان اعرف كيف يفكر أبوها
- اصبر عليها في الوقت الحالي، تحتاج الى البقاء في مكان يبعدك عن الشبهات، لا تتحرك الآن و لا تحتفظ بالمنشورات السرية في منزلهم، ما دامت ابنتهم تتمتع بصفات المراقبة!
- اكسب قريبتك الطفلة الآن، فسوف نريها واقعنا غدا!
- اهلها منحوها الحرية كي تقول ما تريد!
- لا تجادلها، اصمت، علها تغير رأيها فيك، انها طيبة!
- قريبتي واسرتها بكل افرادها يتصفون بالطيبة، ككل ابناء شعبنا!
- طيبتهم الساذجة قد تفيدنا! اصبر قليلا، سوف نحتاج الى منزل آمن في وقت الصفر.....

يقتنع الاستاذ صادق بوجهة نظر المسؤول، ويكتسب صبرا ويظهر ودا ان أسمعه احد معارفه كلمة لا يحب سماعها، ويعمل على كسب

ود الصغيرة، فهي طفلة اولا وانثى ثانيا، ويعجبها الكلام المعسول، خاصة ان صدر عن شخص كانت تجده ثقيلا، يغتصب حقوقها، ويضع يده على ملكيتها الخاصة في الغرفة المستقلة....

اشترى قطعة شيكولاته من النوع الذي تفضله قريبته الصغيرة، وهو يمني النفس انه سوف يكون مقبولا في المنزل الذي وجده ضيفا ثقيلا، يود ان يودي اهل البيت الذي اواه واستقبله بالترحاب الى مهاوي التهلكة .....

يدخل المنزل وهو يرسم ابتسامة على وجهه، سرعان ما تكتشفه قريبته الطفلة الصغيرة ؛:

- شكرا لك على الشيكولاته ضيفنا العزيز، لكني لا أحب تناول انواع الطعام التي تسبب لصحتي ضررا!

- قطعة من الشيكولاته لا تؤذيك عزيزتي!

- الحمد للّه انك اصبحت تراني عزيزة عليك!

(١٤)

قريبنا غير طريقته في معاملتنا، أصبح يظهر اللطف حين يتحدث مع امي ومعي ومع اخوتي واخواتي، ماذا حصل؟ وهل ادرك خالي اخيرا ان خشونة الكلام لن تفيده في شيء وقد تنقلب عليه وبالا، هل عرف ضيفنا ان اللطف يأتي بأكله بسرعة اكثر من اظهار ما في قلبه من كره وحقد، لا يستطيع اخفاءها، وتبدو واضحة في عثرات اللسان، هل نصحه المسؤولون ان يبدي لنا عكس ما يبطن؟ لا اظن انه ادرك خطأ ما يقوم به من قسوة في

الكلام نرد عليها اكثر الأحايين! علمتنا يا حبيبي الا نستكين والا نقبل بان يهيننا احد من الناس مهما كان! فكيف بقريب لنا استقبلناه بترحاب كبير في منزلنا ، نصحتني مرارا الا اتسرع في الرد وان اصبر حتى يتضح لي المقصود مما اسمع، وكنت تعلمني ان صبرت مرة على كلمة بدرت من شخص قد لا يقصدها لا يعني انني اقبل بالتصرفات التي تسبب لي ألما ، فماذا يقصد خالي ان جاءني اخيرا بقطعة من الحلوى؟ وهو يعرف انني استطيع ان اشتري ما اريد بالمصروف الشخصي الذي تضعه في يدي بين يوم وآخر ، منذ ان كنت صغيرة جدا ، لا تعرف اهمية النقود ، انت يا حبيبي لا تعرضني لمواقف لا اعرف كيف اتصرف بها! خالي لم يكتف بان يكون لطيفا معي فقط، بل ابدى تغبرا في معاملته لأمي التي كثيرا ما سمعت منه قسوة الكلام، وانها لا تقدره حق قدره ولا تفضله على افراد أسرتها كلهم، فهو اخوها وعليها ان تراه الأفضل في الرعاية والاهتمام، لم أشأ ان يغضب خالي حين أتاني بقطعة الشيكولاته، رفضت في البداية ان اخذها منه، لكنني حين ألح علي اخذتها وشكرته على مبادرته الجميلة وانه تذكرني وقدم لي حلوى احبها كثيرا ، وبقيت يومين كاملين احاول ان اكون لطيفة مع خالي وان اعامله بالمثل فما ابداه من لين في المعاملة لم اكن قد اعتدتها منه قابلتها بحسن الكلام و كلمة شكرا كلمة تفي بكل ما يتطلبه الحال من تبدل! فهل غير خالي التكتيك؟ وان بغضه لنا باق وربما زاد وتضخم، لم افكر كثيرا بأسباب التغير وظننت ان خالي عرف ما تكنه له امي من

حب ومودة، وانه غير معاملته لها ولابنتها وبنيها، وان كان رأيه بك لم يتغير! فلماذا لا يحبك خالي؟ وانت الذي اكرمته كثيرا، وتنصحنا دائما ان نحسن معاملته والا تبدر منا اي كلمة قد يفهم منها انه غير مرحب به في منزلنا، كثيرا ما فكرت بأسباب هذا الانقلاب الذي حدث لخالي! وجعله يبدي لطفا لم يكن يتحلى به، اعرف انه يعتبر اللين ضعفا في الشخصية، وكثيرا ما كانت طيبة امي وحسن خلقها مدعاة للسخرية، خالي لا يسخر مني! ولا يظهر استهزاءه بك ونعلم كلنا انه يضمر لك الكراهية والبغضاء! فمن اسدى له النصيحة بان يكون لطيفا مع اناس لا يطيق ان يكونوا معه في بيت واحد!

(١٥)

نُصح الأستاذ صادق عبد الله من قبل فرقته المنظمة ان يبقى في بيت قريبه، وألا يغادره مهما حصل، حتى وان طلبوا منه المغادرة صراحة:

- أقرباؤك كرماء كما يخبرنا اهل منطقتهم!
- نعم هم كرماء مع اصدقائهم ومن يعتقدون بوجهات نظرهم!
- هل يمكن ان يطردوك من المنزل ان أسأت معاملة ابنتهم؟
- انها مجرد طفلة وان كانت تحب ان تقلد الكبار!
- انها ذكية ومتقدمة في دروسها وهادئة، لماذا لم تستطع ان تجذبها الى جانبك؟

- لن اكون اقرب اليها من والدها الذي تعمل بمشيئته!
- طبيعي ان تحب كل ابنة أباها!
- الا سميرة فقد تفوقت في حبها لأبيها على بنات جنسها!
- ابق معهم حتى تحين ساعة الصفر!
- وماذا افعل حينذاك؟
- ان فشلت حركتنا تظل انت مع أقربائك، ولن يشك بك أحد أبدا!
- وان نجحنا؟
- سوف نجعلك تنتقم من كل الذين لم يحبوك!
- هم كثيرون!
- ان نجحنا، سوف يبدي حبك كل العالم!
- معروف ان الناس يقفون بجانب المنتصر!
- لا يكون انتصارنا معنويا فقط، سوف نملك المال والجاه ونجعل منك مسؤولا كبيرا!
- انا كبير الآن! ألم أحصل على شهادة كبيرة رغم صغر سني؟
- بتوصية منا ستصبح دكتورا! لا تتعجل انت لم تتمكن من الحصول على الدكتوراه في بغداد، ان انتصرنا ستكون الشهادة الراقية في يدك! أليست جامعتنا أرقى جامعات العرب؟
- ولكن أعداءنا الفكريين يسيطرون على الجامعة وكل المؤسسات العلمية في البلد ....
- سوف نضع حدا لكل هذا، لن يتخرج احد في اي جانب من

جوانب المعرفة الا بموافقتنا!

- متى؟ اظن ان يومنا سيكون بعيدا!
- لا شيء بعيد ان صرنا نملك المال والسلطة!
- انهم أقوياء جدا ، قد لا يستسلمون لنا!
- سنبيد من لا يمكن اغراؤه بالمال، ونشتري كل امريء قابل للشراء وهم كثر صديقنا العزيز!
- سوف ادعو الله ان تتحقق ارادتنا ، ويكتب النصر لنا .
- جامل اقرباءك حتى يحين موعدهم!
- ان انتصرنا سوف اجلسهم على نار هادئة حتى تنضج جلودهم!
- سميرة الصغيرة لن نستعمل العنف معها!
- هي صغيرة بعدد سنوات عمرها ، لكنها كبيرة بالكتب التي قرأتها ، والمقالات التي كتبتها!
- حاول ان تستميلها منذ الآن! من يدري؟ قد تقف الى جانبنا ان رأت ان الدنيا دوارة!

(١٦)

وقفت سميرة امام جموع طالبات المتوسطة لتلقي كلمتها في احتفال تحية العلم:

- حضرة مديرة المدرسة المحترمة، مدرساتي الديمقراطيات اخواتي الطالبات!
- خاطبي المجموع!

- حضــرة مــديرة المدرســة مدرســاتي العزيــزات اخــواتي الطابات....

تـبين سمـيرة في خطبتهـا اهميـة العلـوم، وضـرورة احـترام المعلـم وتقـديره، فهـو الشـمعة الـتي تـنير الـدرب لبنـاء المسـتقبل، تنتهـي خطبتها وتعود الى صفها، تجـد مدرسـة الانجليزيـة عابسـة الوجـه، مقطبـة الجـبين، لم تقابلـها بالحفـاوة الـتي عهـدتها في الـدروس الأخـرى، سمـيرة مجتهـدة وتحظـى بالتقـدير الكـبير مـن قبـل مدرسـاتها وتتمتـع بحـب زميلاتهـا .... بعـد نهايـة درس الانجليزيـة يأتي امر من مديرة المدرسة ان تذهب سميرة لمكتبها :

- لمـاذا وجهـت في خطبتـك الكـلام لـبعض المدرسـات ولـيس لكلهن؟

- وجهت الكلمة للديمقراطيات، هل من المدرسات من لا تحب الديمقراطية ولا تريد ان تتصف بها؟

- مـنهن الكـثيرات، انـت مجتهـدة واخشـى ان تـثير كلماتـك غضـب بعض المدرسـات، فـلا تعـودين تتمـتعين بكونـك الأولى علـى صفك! لا تخاطبي بعض الناس مبعدة الآخرين مرة اخرى!

- نعم استاذتي ....

سـرعان ما يتحقق ما كانت تخشـى حدوثـه مـديرة المدرسـة، في امتحانـات نصـف السـنة الشـفهية توجـه مدرسـة الانجليزيـة اسـئلة ليسـت في المـنهج المقـرر، فـلا تسـتطيع سمـيرة الاجابـة، فيغلبهـا الخـوف ان تكـون راسـبة هـذا العـام وقـد اعتـادت ان تكـون الأولى دائما، تخبر اباها بما حدث في الامتحانات:

- لا تخافي يا ابنتي، ان لم تنجحي في مادة الانجليزية في امتحان نصف السنة، ابذلي جهدك وادرسي جيدا، سوف تحققين النجاح المرجو منك اخر العام ..... الجميع يعرفون لماذا لم تستطيعي الاجابة، فلا تبتئسي!

تنفذ سميرة نصائح ابيها، وتبذل جهودها لاستيعاب الدروس وقراءة المواضيع بدقة، تحصل في اخر العام على درجات نهائية في الرياضيات والعلوم ودرجة التسعين في العربية والتاريخ والجغرافيا ودرجة الستين في الانجليزية وتكون الأولى على صفها، يقدم لها ابوها هدية على التفوق كعادته كل عام ...

(١٧)

لم اكن اعلم يا حبيبي انهم يظهرون كرههم لكل شيء جميل، حين كنت في الابتدائية كتبت عن كل الامور، دون ان اخفي حبي للجمال والتقدم والانصاف، ألقيت خطبي وانا اثني على توق الناس الى تحقيق العدالة والمساواة، وحين حققت التفوق الذي أرومه، نقلت نفسي الى الدراسة المتوسطة، اختلفت المدرسات، ولم تعد كل واحدة منهن تغرقني بآيات المديح بعد

كل خطبة ألقيها، صرت لا ألحظ الرضا عن حروفي على كل الوجوه، لم تطلب مني احدى المدرسات ان اكتب كلمة لتلقيها في مناسبة تحية العلم، اصبحت بعض الوجوه تعلن مقتها لما افعل رغم اجتهادي الكبير، لكني ظننت انهم كلهم يدعون بنصرة المساواة والديمقراطية، لهذا خاطبتهم، فوجئت امام مسامع

المدرسات والطالبات بصوت المديرة وهي تعترض على المقدمة في خطبتي، لم اتح لهم ان يروا حيرتي، فعملت بما وجهتني المديرة اليه، وخاطبت المجموع، لكنهم لم يرضوا ابدا عني، صرت اجد البغض واضحا على بعض الوجوه، ولم احصل على النتائج التي كنت احققها في الامتحانات الشهرية، بقي اجتهادي وتراجعت الدرجات التي احرزها، لم يقلقني هذا الأمر فلم اكن اسعى لنيل رضا من لا يرضيه شيء، انتقلت مدرسة الانجليزية التي كنت احرز عندها أحسن النتائج في الامتحانات، وقامت مدرسة اخرى بتدريسنا اللغة الانجليزية، حافظت على اجتهادي للوهلة الاولى، وحين وجدت ان درجاتي لم تكن كما احب ولا تناسب ما اقوم به من دراسة، لم اعط اللغة الانجليزية الاهتمام الذي كنت اوليه لها، استغلت الست اميرة تراجعي ووجهت لي في الامتحانات الشفهية اسئلة لم تكن اجوبتها ضمن المقرر ذلك العام، لم استطع الاجابة، فمنحت ادنى درجة يمكن ان تعطى لطالب، كما تلاعبت الست اميرة بدفتر الامتحان ومسحت اجوبتي، ...

اراد المبغضون ان يجعلوني افقد ثقتي بنفسي، دخلت مديرة المدرسة الست اديبة الى الصف حين كنت غائبة بسبب اصابتي بالانفلونزا وقالت لصديقاتي:

- زميلتكم التي كانت الأولى راسبة في الانجليزية!

انت لم توجه لي كلمة عتاب، وكنت تطلب ان اكون الاولى دائما على صفي، ادركت حينذاك ان الذنب عائد لهم وليس لي، فقد حصلت على المائة في الحساب والهندسة والجبر، وتسعين في

العربية والتاريخ والجغرافية:

- لا تبتئسي يا ابنتي، في امتحانات نهاية السنة تكونين الأولى ...

لم اكن هادئة كما كنت تنصحني، نتائج امتحانات نصف العام اتعبتني، هل يمكن لأستاذ نزيه ان يغير اجابات طالب، ويمسح الصحيح ليضع صفرا، ويحقق انتصارا كاذبا على طالب عرف بالاجتهاد والمثابرة؟ وان كان الاستاذ ميالا للغش، فكيف يزرع الثقة في نفوس طلابه؟ لم تعود الي ثقتي بنفسي وانني قادرة على تجاوز ما يضعونه في طريقي من مصاعب الا بعد فترة طويلة وحين أيقنت ان النجاح ليس هينا، وان الوصول الى تحقيق الآمال شائك وعسير، كم انت رائع يا حبيبي، عرفت انهم سوف يتآمرون علي ليسلبوا مني ما بقيت سنينا تزرعه في نفسي من يقين!

(١٨)

تملك الفرح قلب الأستاذ صادق واستوطنت البهجة عقله، حين اخبره مسؤوله في الفرقة ان ساعة الصفر قد قربت، وان لهم ان يتحركوا، وان يقلبوا المقاييسس ويجعلوا قوانين الأرض وقواعد السماء تنقلب:

- افرح استاذنا ودع السرور يملآ نفسك، فسوف نعلن قريبا اننا الأعلون ومن حقنا ان تكون كلمتنا هي الأولى!

- وهل قرب الوقت لأزهق ارواح من سبب لي الأذى وجعلني لا أقدر على الكلام؟

- نعم سوف تأخذ دورك الذي تعبنا جميعا من اجل الوصول اليه، سوف يصمت الجميع ويستمعون الى كلماتنا الناطقة!

- متى تكون ساعة الصفر؟

- بعد شهر وربما أقل، لقد ساهمنا في بث الفرقة بين الصفوف، وجعلنا الجميع يتذمرون، بعد ان كان الرضا عن الوضع العام مسيطرا!

- محبو الوضع الحالي والمهيمنون مستفيدون!

- سوف نضع حدا لكل هذه الاستفادة! انصحك استاذ صادق ان تكون هادئا هذه الأيام، لئلا يدرك أقرباؤك ان امرا غريبا سوف يحدث!

- وكيف لهم ان يعرفوا؟ لن يخبرهم احد! مظاهراتنا الاحتجاجية أتت أكلها! وبات الناس يظهرون نقمتهم ...

- اعوان النظام رغم انهم يتلقون الضربات الأليمة الا انهم يدافعون عن الوضع بضراوة!

- ابق في بيت أقربائك بعض الوقت، حتى تكون لنا الجولة المنتصرة!

- أنا في شوق لسماع اخباركم!

- انت اول من يعرف متى نتحرك! هل نسيت انك رجلنا الذي نعتمد عليه، جامل أقرباءك قليلا، ولا تجعلهم يعرفون حقيقتك منذ الآن!

- مهما اظهرت لهم الود، فان قلوبهم تدرك انني لا اكن لهم شعورا طيبا!

- حاول الا يظهر مقتك لهم في نظرات العينين وفلتات اللسان، انهم أذكياء كما يصف جيرانهم والمعارف!
- سئمت منهم .
- اصبر قليلا ، حتى تتضح الأمور! لم يحن وقت التغيير بعد ..
- سأصبر، وان كان صبري مرا طعمه!
- ما أخبار اخيك الذي قلت لنا انه يقتدي بك؟
- انه في مكانه لم يتغير، رسب في الاعدادية ثلاث سنين!
- طمئنه، اخبره اننا حين نملك مقاليد الأمور، سيكون ناجحا في الدور الأول ..
- هو يعرف هذه الحقيقة ، لهذا هو يشتاق مثلي الى التغيير!
- قربت الساعة!
- متى؟
- اصبر قليلا ، انصح أخاك ان يأتي معك الى بيت أقربائك!

(١٩)

الوضع يتدهور باستمرار، انفلات امني رهيب، جيراننا اغتيل ابنهم الكبير، لا لسبب سوى انه انضم الى حركة المقاومة الشعبية قبل ثلاث سنوات ولم يواصل الانضمام اليها فانسحب، ام احمد جارتنا الطيبة انتقدت من يضع حدا لحيوات الناس ويحاول ابادتهم، فكانت نتيجة طيبة قلبها ووقوفها مع المظلومين ان هوجم ولدها الوحيد من قبل عصابات مسلحة تعيث في الأرض فسادا ، في المدرسة وجدت كثيرا من الطالبات والمدرسات يهاجمن

النظـام القـائم ناعتـات ايـاه بأبشـع الصـفات، يـتم الاسـتهزاء بشخصـيات كـبيرة لم تسـبب الأذى لأحـد، كـل مـا جنتـه انهـا دافعت عـن حقـوق المهمشـين، اشـخاص عديـدون كـانوا لا ينطقـون وكنـا نظـن انهـم لا يملكـون ألسـنة، فـاذا بهـم يصـبحون طـويلي اللسـان يتهجمـون علـى كـل مـن يبـدي رأيـا مخالفـا، اصـدقاؤنا لا يجـدون التقـدير الـذي يسـتحقونه، في مدرسـتي انخفضـت درجاتنـا رغـم اننـا بقينـا علـى نفس الاجتهـاد، تجـرأت بعـض المدرسـات علـى حذف الاجابة الصحيحة من دفاتر امتحانات الطالبات المجتهدات، لأن هؤلاء الطالبات معروفات بمناصرة الوضع القائم، وانت تواصل زرع القوة في قلبي وعدم التراجـع عـن الموقـف الـوطني مهمـا كـانـت نتائج الثبـات، لم يهـاجمني احـد امـامي، ولـكنهم يطعنـونني مـن الخلـف، تخبرنـي صـديقاتي ان الاعـداء قـد تكـاثروا وتضـخمت أعدادهم ....

خالي صار ينتقد بوقاحة لم يكن يجرؤ على اظهارها قبل الآن، ظنت امي ان هذه الحالـة مؤقتـة وسـرعان مـا يعـود خـالي الى وضـعه الطبيعـي حيـث كـان ينتقـدني انـا وحـدي، دون ان يشـملك انتقـاده ودون ان يهاجم امي، الشخص الهادئ الذي حاول ان يكونه خـالي لم يعـد بحاجـة الى تقمصـه، صـار لسـانه طـويلا، والنقـد تحـول الى هجوم على كل مـا نحبـه وقـد ربيتنـا يـا حبيبي ان الخلـق النبيـل مـا يجب ان نتحلى به مهما جابهتنا الصعاب ..

جاء خالي الثاني الى بيتنا وقطن غرفتي، واصبح يـردد مـا يقولـه اخـوه الأكـبر، والجميـع يعرفـون ان الأخ الأكـبر قـد جعـل أخـاه

الأصغر امّعة له وتابعا، واصبحت الضيافة ثقيلة على أنفسنا ..

(٢٠)

في صباح يوم الجمعة الثانية من شهر شباط بقي الأستاذ صادق عبد الله في منزل أقربائه، ونفذ توجيهات رئيسه في المنظمة، جر صاحب المنزل المضيف الى مناقشة عقيمة عن اهمية تغيير الوضع القائم الى حالة افضل، استغرب صاحب الدار من الجرأة التي جاءت الى الاستاذ صادق على غير عادته، لم يكن يتحدث او يبدي رأيا في المسائل التي تثير خلافا، وحين يسمع حديثا عن محاسن النظام القائم وانه منح بعض الحقوق للفقراء والمساكين، واصدر القوانين المنصفة بحق النساء وبنى المدن، لم يكن يبدي اعتراضا، او يفه بكلمة واحدة تدل على انه ليس راضيا، في صباح يوم الجمعة الثانية من شهر شباط كان الأستاذ صادق عبد الله متحمسا في الحديث يبدي مناوءة واضحة لما آلت اليه الأمور في الوقت الحاضر، وانه لا يمكن لأصحاب النفوس الضعيفة، والقلوب الحانية ان يتولوا المسؤولية، وان نظام الحكم القائم قد وضع الامور في غير موضعها المناسب، اثار كلام الأستاذ صادق استغراب السامعين، الذين لم يعهدوا منه ابداء الرأي، دق هاتف المنزل وطلب الأستاذ صادق، سمع الجالسون في غرفة الضيوف المتكلم من السماعة يقول:

- لا مجاملة بعد اليوم، جابه الجميع بآرائك ولا تسمح لأحد ان يقول ما يخالف عقيدتنا!

- سمعا وطاعة ....

وضع سماعة الهاتف في مكانها وعاد الى مجلسه، والابتسامة مرسومة على ثغره الذي لم يعرف الابتسام سابقا:

- عليكم ان تسمعوا ما اقول، وان تنفذوا تعليماتي فقد ولى زمانكم!
- اي زمان تعني؟ وكيف يولي؟ وماذا حدث؟
- سوف تسمعون بعد قليل اخبارا أرى انها ستحزنكم!
- وكيف عرفت؟ وما هي هذه الأخبار؟
- زعيمكم الذي تحبون سوف نرسله الى الجحيم!
- ماذا حدث؟ ومن انت لترسله؟
- سوف أريكم من انا؟!
- أنت الآن ضيف في منزلي!
- كل المنازل ستكون لنا ....
- هل تحلم؟
- بعد قليل تسمعون البيان الذي يجعلكم تعرفون من انتم ومن نحن!
- صه يا قريبنا!
- اصمتي يا سميرة، سوف اريك قريبا عاقبه كلامك الكبير ايتها الصغيرة المتشبهة بالكبار!
- لماذا هذا الهجوم على ابنتي يا ضيفنا؟!
- سوف نريكم كيف تكون التربية!
- ربي ابنتك حين تكون أبا، اما ابنتنا فهي احسن البنات

واذكاهن! وأطيبهن قلبا!

- لم تعاملني بالحسنى وقد قلدها اخوتها واخواتها! وأصبحوا يتسببون في اثارة الضحك على شكلي!

- ولماذا تهتم بما يقوله الصغار؟ ألا تثق بنفسك؟

(٢١)

في ليلة الجمعة الثانية من شهر شباط جاء خالي الى بيتنا، ولم يخرج تلك الليلة بل بقي ساهرا الى وقت متأخر، الهاتف لم يوقف رنينه، لم يطلب احدا من افراد اسرتنا، حتى انت لم يطلبك احد، كل النداءات كانت لخالي، يطلبه شخص لا نعرفه، يتحدث معه خالي والانشراح باد بوضوح على قسمات وجهه، يعود الينا بعد كل نداء رافعا صوته مهددا بالويل والثبور وعظائم الامور، لم نعرف ماذا يجب ان نفعل كي ننقذ انفسنا من الغضب القادم الينا، نامت الاسرة وبقيت انا مع خالي والسؤال يخنقني:

- لماذا اجد خالي قد تغير؟ ولماذا ابدى حبا لنا قبل ايام؟ ولماذا انقلب هذه الليلة وأعلن عن كره شديد؟ وما الذي اخبره من اتصل بالهاتف؟ ولماذا تعدد الطلب عليه هذه الليلة؟ وماذا جنينا نحن ليهددنا الخال ويتوعدنا بعذاب مقيم؟

نادتني امي واقترحت ان اذهب الى سريري، فالخال غامض هذه الليلة ولا يفصح عما يريد! وما هي الأمور التي تفرح خالي؟ وقد عهدناه دائم العبوس؟ اطعت امي ولجأت الى السرير الذي ينجدني من التعب ومن الغموض الذي يحيط بي!

في الصباح لم نستيقظ مبكرين كعادتنا دائما ، فقد كان اليوم جمعة وهو عطلة رسمية ، انت كنت متعبا ولم تذهب للعمل اعتدنا منك ان تبدأ نهارك عاملا نشيطا كي يصبح يومك زاخرا بالأمل والفرح، تناولنا فطورنا مجتمعين وقد احطنا بأمنا الحنونة والوالد الرحيم، وبقي خالي في غرفتي، اردت ان ادعوه الى الفطور فقالت امي:

- دعيه الآن، سهر الليلة الماضية واظن التعب قد نال منه!

ارى خالي ينزل السلم وقد سمع ما قالته امي:

- انتم لا تعاملوني بالطيبة المطلوبة! لماذا لم تدعوني الى الفطور؟

- انت من افراد الأسرة ولست ضيفا!
- ولكنكم لم تعاملوني كما يجب!
- وكيف نعامل اولادنا؟ انت اخي وبمعزة اولادي!
- سوف اريكم مالا تحبون!
- لماذا؟
- بعد قليل تسمعون الأخبار!
- اخبرنا انت ماذا جرى!
- سيذاع الخبر بعد قليل!
- لماذا لا تقل لنا ماذا سيحدث؟!ما الذي تعنيه؟
- بعد ربع ساعة افتحوا المذياع!
- والتلفاز اعتدنا ان نفتحه صباح كل يوم وفي المساء!
- المذياع سوف ينبئكم بما سوف يجري!

- والتلفاز"؟

- التلفاز سيحذو حذو المذياع، افتحوا المذياع الان!

(٢٢)

أقبل يوم الجمعية المنتظر، سيطر الانقلابيون على مقاليد الأمور، اذاعوا بيانهم الذي يدعو الى ابادة كل من يخالفهم، قالوا انهم يريدون ان يكونوا دولة قوية لا مكان فيها للقلوب الضعيفة، والتي تستوقفها الكلمة الحانية وتجعلها المواقف الانسانية تغير كلامها وتقف بجانب المظلوم مهما كان الظالم قويا، فرح الأستاذ صادق عبد الله بالتغيير وطمح ان يكون له مركز مهم في الأحداث الجديدة، يتناسب مع تضحياته في صبره على معاملة أقربائه، طالب بإنزال اقسى العقوبات بكل من يبدي التعاطف والرحمة مع بني البشر، قال ان شعبنا قد جبل على القوة وانه من الحكمة ان نجعله يستكين لإرادتنا، القى الأستاذ صادق خطبته التي تدعو الى مناصرة العهد الجديد، وابادة كل من يبدي اعتراضا على التعليمات الجديدة، التفت الى سميرة الصغيرة المتشبهة بالكبار وقال لها:

- اسمعي ما اقوله لك جيدا، مضى زمان التدليل والرأفة. وجاء الوقت الذي يقى ك موقف حفه من الاستحسان او التقريع!

- ماذا فعلت انا؟

- لم تسمعي كلامي ولم تعملي بنصيحتي!

- لكنك لست ابي!

- سوف اكون ابا للجميع من سكان هذا البلد!

- لماذا؟ انا ابنة ابي وأمي!

- لكنهما لم يحسنا تربيتك!

- وجه انتقادك لي استاذ صادق! لماذا تعامل ابنتي بهذه القسوة؟

- القسوة قوة تعيدكم الى المكان اللائق بكم!

- لم افهم بعد، اعرف انك ضمن الانقلابيين! ولكن ما درجتك بينهم حتى تقوم بالأمر في بيتنا والنهي كما تحب وتشتهي!

- سأبدأ تربيتنا الجديدة من هذا الموقع! منزلكم الذي تدعيه ستنطق منه اصول التربية التي نريدها لهذا البلد! لا مكان بيننا للمتخاذلين المتصفين بالشخصية الرحيمة التي تملك القلوب المتعاطفة مع المخلوقات الضعيفة، والتي تستثيرها الكلمات الفارغة وتجعل دموعها تسيل!

- هل تعترض على طيبة البشر؟

- الطيبة التي تدعيها ضعف يجب على حكومتنا ان تستأصل جذوره من هذه الأرض، وتزرع مكانه اشجارا باسقة لا تعرف الرحمة التي هي ليست من شيم الشجعان!

- الشجاعة مع القسوة تحرم الانسان من المروءة، الشجاعة تكون مع الرحمة فهما صفتان لا يمكن ان تتعزز الأولى الا بالثانية!

- هذا الفرق بيننا وبينكم! أسئتم للتربية حين جعلتم الرحمة سائدة بين بني البشر!

- وماذا تريدون انتم؟

- نريد ان نستأصل الرحمة من القلوب، لنبني دولة العقيدة على انقاض دولتكم التي نعمل على انقلاب كل مفاهيمها العتيقة التي لا تلائم روح العصر!

(٢٣)

انقلب خالي وظهر ما كان حريصا على اخفائه، امي فوجئت بالتغير الكبير الذي حدث، الهدوء الذي كان يدعيه صار عنفا وشدة، انت لم تجد الامر غريبا، جماعته التي نجحت في تغيير النظام امرت اتباعها بقتل كل من يظهر عدم الرضا مما وقع في البلاد، اعدم الكثير من الشخصيات التي كنت احبها واجدها قريبة من النفس بما تملك من مواهب، غادر خالي منزلنا بعد ان كنا نظن انه سيبقى العمر كله جاثما على الصدور، حتى خالي الاصغر الذي كنت اجده اكثر لطفا من اخيه الكبير قد اظهر وقاحة في معاملتنا، اخذ الاخوان يظهران شعورهما الحقيقي نحونا ولم يحتاجا الى اخفاء مهاجمة ما يريانه من صفات لا يحبانها، اصدر الحاكم العسكري بيانا يدعو فيه الى قتل كل انسان يجدون فيه ميولا يسارية، ويدعو الى العدالة والمساواة ورفاه الشعب وتقدمه، على الناس ان يقتلوه كي يكون عبرة لكل من تسول له نفسه ان يخرج على الاوامر داعيا الى مخالفتها لأنها لا تتفق مع الانسانية، اصابني الحزن وانا اجد كل اصدقائك قد القي القبض عليهم واغتيلت حيواتهم دون سبب، ظهر الكارهون

للبشر واختفى المحبون الداعون الى النضال من اجل حياة افضل، تناءى الفرح من بيتنا وحل مكانه حزن ويأس حين انقلب واقعنا الى بؤس وظلام دائمين، لزمت المذياع الذي اخذ يبث اخبارا حزينة، تضاعف عدد القتلى والشهداء، أغلب الذين احبهم قد استشهدوا نتيجة التعذيب الدامي والرهيب، لم اعد قادرة على القراءة او الكتابة، وكل الوقت كنت اقضيه وانا احضن المذياع علني اسمع اخبارا تأتي ببعض السرور، انباء قليلة جاءت ببعض الفرح الى نفسي التعبة وانا استمع الى اخبار عن منظمات عالمية تدين الاعتقالات العشوائية والابادة الجماعية التي يقوم بها الانقلابيون ضد كل من يعمل من اجل اسعاد الناس، جاء الانقلاب في العطلة الربيعية والمدارس مغلقة ونحن نامل ببعض الراحة بعد عناء الامتحانات، بقيت انتظر تفسيرا منك قد يريحني ويبعث الامل الى نفسي المجهدة، لاحظت حزني، فأخذت تريحني بقولك ان هذا الوضع لابد ان يكون وقتيا وان الانقلابيين مهما نكلوا واعدموا واغتالوا من ابناء الشعب لن يتمكنوا من ابادة الجمال واغتيال الفرح وان شعبنا سيقف لهم بالمرصاد وسيضع حدا للجرائم ضد الانسان وكرامته، انتهت العطلة ولم اتمكن من الراحة وتضخم التعب، وبدأ الدوام والنفوس قلقة تتطلع الى ما يهديء من جزعها، واتلفت دفاتر الامتحان اخبرتنا مدرسة الرياضيات ان اجابتي كانت افضل الاجابات واثنت على اجتهادي بالرغم من ان النتائج سوف تلغى ....

(٢٤)

صدرت تعليمات جديدة من الانقلابيين بإعدام كل من يبدي عدم الرضا من الوضع الجديد، حتى الكلمة حين لا يفهمون ما يرمي اليه قائلها، قد تودي بصاحبها الى التهلكة، رجال كثيرون ونساء لا يمكن عدهن القي القبض عليهم بناء لوشايات صدرت عن أعدائهم، ولم يكلف احد المسؤولين نفسه ان يتحرى عن صدق الوشاية، خاصة ان قيلت ضد من كان يعرف بانه عاشق للقراءة يحب ان يلتهم الكتب. قال الأستاذ صادق عبد اللّه:

- لا نريد دود الكتب بعد الآن!
- من تعنيهم بالدود؟
- اؤلئك الذين يكثرون من القراءة ويريدون ان يطبقوا ما قرؤوه في الكتب في بلادنا ..
- وما الضير في ذلك؟ ما دامت البلدان التي يريدون نقل تجربتها متطورة؟
- نظرياتكم لا تناسبنا!
- وهل هذه اصول المناقشة؟
- نعم، ولتسمع ما اقوله لك!
- لن اسمع الا ما يتلاءم مع ما اعتقد بصحته!
- سوف نريك ما تكره!
- هل هذا تهديد؟
- فسره كما تحب!
- انت تعرفني، لا اخاف الا من ربك!

- سوف تثبت لك الأيام ان ثقتك بنفسك ليست في محلها!

- كيف جاءتك هذه القدرة؟ المناقشة تحتاج الى تبادل في الآراء المختفة، للوصول الى رأي يتفق عليه جميع المتناقشين!

- في عرفنا لا يوجد نقاش بين الآراء المتصارعة، يوجد رأي واحد صحيح، هو ما نراه نحن، وسوف نجعل الجميع يتخذون الموقف الذي نعتقد بصوابه! سوف ننشئكم من جديد، ونجعلكم تسيرون على صراط مستقيم دون ان تميل اقدامكم!

- تهديد ثان؟

- اعتبره تهديدا، هذا الشعب لا يسير الا بالقوة!

- القوة لا تعني العنف، وقوة الاقناع لا يمكن ان تكون ارغاما!

- ان كنتم لا تقتنعون بما نقول، فالأنسب ان نجرب طريقة اخرى اكثر تأثيرا .

- كثيرون لا يريدون ان يفرض عليهم شيء!

- سوف نحول الكثير هذا الى قلة خارجين عن القانون، لا يجدون من يتعاطف معهم!

- وكيف تفعلون هذا؟

- بالثواب نكسب الناس ان كنا لا نستطيع ان نجعلهم ينفذون ما نريد منهم بالعقاب!

- وهناك فئة من الناس لا يمكن كسبها لا بالثواب ولا بالعقاب، انما تعمل ما تؤمن بصحته مهما كانت النتائج!

- هؤلاء الذين تتحدث عنهم سوف يتحولون الى فئة ضالة

يحاربها الجميع، فلا تجد امنها الا خارج الحدود!

- ما هذا؟ كل هذا الكره في قلوبكم؟

(٢٥)

احضن المذياع واستمع الى اخر الأخبار، علني أعثر على خبر مختلف عن أخبار الموت الذي فغر فاه، واخذ يستقبل كل يوم آلاف الضحايا، جيراننا الذي يقطن في المنزل المقابل لبيتنا اعتقل مع اخوته واخواته، وهو الهادئ المحب للمعرفة، والذي لم نعرف عنه انه منتسب لاحد الأحزاب، اخبار فاجعة تجري كل يوم، أصدقاؤنا القريبون منا جدا نسمع احتجاجهم على ما آلت اليه الاوضاع، انت تذهب كل صباح الى العمل، وانا اترقب عودتي الى المدرسة بعد انقضاء العطلة الربيعية، لم يعد خالي الى المنزل، ولم نفتقده، يأتي ويغيب دون ان نشتاق الى وجوده، شارعنا حلت به الكارثة، اعتقل الكثير من سكانه ومواطنيه، اسمع في الاخبار التي ينقلها المذياع عن اعتقال الالاف من الناس وقتلهم بدون رحمة وينقل لي الجيران عن حوادث اعتقال واغتيال تطال الكثيرين من ابناء وبنات الحي الذي نسكنه، خيم الحزن على ربوعنا وسرق منا الطمأنينة التي كنا نشعر انها معنا، اصبح الناس يسيطر عليهم الخوف من اخراجهم من منازلهم بالقوة والا يتمكنوا من العودة اليها، لم ازر احدى صديقاتي ولم تقم احداهن بزيارتي، كل الوقت كان يمضي وانا استمع الى الأنباء الفاجعة عن قتلى وجرحى ومصابين، لم اجد أحدا يرحب بالذي حدث،

جميع من رأيت ناقمون على ما وصلت اليه الأحداث، اوشكت العطلة ان تنتهي ولم أتهيأ لبدء الدوام كعادتي اخر العطل، فأنا احب المدرسة واعشق الحياة فيها وتحبني المدرسات واجد منهن كل احترام وتقدير، صحيح ان بعض المدرسات قد نشطن ضد النظام الذي كان قائما، وانني لم الق منهن ما اعتدت عليه من تقدير ، لم تأتني اخبار المذياع بما يفرح القلب، فأخبار الموت والقتل والاغتيال طاغية، الجثامين تنتشر في الطرق والناس غاضبون مما وصلت اليه الأمور، اي كلمة بريئة تودي بقائلها الى التهلكة؟ اي قانون هذا ومن وضعه؟ ولمصلحة من تسفك الدماء الزكية، وتغص السجون بالناس الأبرياء؟ ولم يقترفوا اثما يعاقبون عليه، فلماذا يتعرضون للعذاب؟ وردت هذه الأسئلة الى نفسي المفعمة بالحزن ولم اجد جوابا يشفي فؤادي الذي اتعبته قسوة الظلم! ترى ما حل بي وتشفق علي انني اجد انقلابا في النفوس لم اكن اتوقعه! تبدلت القلوب، وغير الكثيرون قناعاتهم، لم اعرف ان بعض الناس قادرون على تغيير وجوههم وانقلب بعض من كنا نظنهم أصدقاء، وحين عادت المدارس الى فتح ابوابها، لم اجد راحتي المعتادة، صديقات قليلات بقين معي، يسرن معي في الفرص بين الدروس، ويتحدثن معي ببعض الأمور، وكنت قبل تبدل المقادير كثيرة الصداقات

(٢٦)

اشتركت ثلاث مدرسات من متوسطة بغداد للبنات في هيئة تحقيقية للطالبة سميرة وزميلاتها ، وجهت للمتهمات تهمة خطيرة انهن قمن بجمع التبرعات لعوائل الشهداء الذين ابادتهم الحكومة الجديدة ، بعد إذاعة بيان الحاكم العسكري الذي يدعو لقتل كل من يراه الناس يحمل افكارا لا تتفق مع آراء النظام الجديد ، لم تكن سميرة على علم مسبق بما يوجه لها ، وجدت نفسها وحيدة في ساحة المتوسطة لا تجد اي زميلة اخرى في نفسها الشجاعة للحديث معها ، قالت لها الطالبة حزام:

- لا استطيع الكلام معك ، اخاف من العقاب ، لم اقم بشيء مما يتهموني به ، ارجوك لا تذكري عني ما يسبب لي الأذى!

ومرت الزميلة خولة وهي تقول بصوت هامس:

- لا اعرفك ولا تعرفينني ، ان افشيت سرنا سوف اذكر لهم انك اجبرتني على دفع الكثير من النقود تبرعا للجماعة التي تنتمين اليها ...

وقالت ساهرة:

- كنت اسير معك لأنك مجتهدة وعلى خلق رفيع ، اما الآن وقد تبين للجميع انك تحملين بعض الأفكار التي يجدها المسؤولون هدامة ، فأنا لا اعرفك بعد الآن!

وتحدثت سعاد:

- اعرف انك اقوى منا جميعا واكثر شجاعة ، ان اجبروني

على الاعتراف سوف ابوح لهم بما يريدون ...

قالت الست اميرة:

- انك عنيدة ولن تقولي لنا ما نبحث عنه، سوف نرغمك على افشاء ما تحملين من أسرار! هل تبقين مصرة على الصمت ان رأيت الحبل معلقا حول عنقك؟

- لكني لم افعل شيئا ....

- سوف نرى الى متى يظل اعتزازك بنفسك؟ من اين جاءتك هذه الثقة وجماعتكم يتساقطون بالآلاف؟ هيا اخرجي وانتظري قرار الهيئة التحقيقية!

وجدت سميرة بعض المدرسات يبتسمن لها مشجعات على الاستمرار في الاصرار على كتم الأسرار التي اخذت تودي بأصحابها الى موارد التهلكة!

خرجت سها تبكي من غرفة التحقيق المدرسي، وخرجت مفيدة وهي تضع على شفتها ابتسامة العزيمة والثقة ...

دخلت سميرة الى صفها قبل ان تعرف قرار لجنة التحقيق، قالت مدرسة الهندسة:

- احسن اجابة في مادة الهندسة كانت لزميلتكم سميرة ...

هدأت الطالبة التي يريدون معاقبتها العقاب الذي يردع كل من يحاول السير على طريقها الشائك الصعب المليء بالمصاعب، وحاولت ان تتناسى ما سوف يحل بها، وان تندمج في الدرس الهندسي الذي تحبه، نجحت في مسعاها، دق الجرس مؤذنا بانتهاء حصة الهندسة وبداية حصة الجغرافية وجاء رسول الادارة

- الادارة تريد الطالبة سميرة!

- اذهبي واخبريهم ان عندها درس!

تعود العاملة وهي تقو ل:

- يقولون في الادارة على سميرة ان تحضر حالا!

(٢٧)

لم اكن ادري يا حبيبي ان اكثر النفوس قادرة على البغض الشديد، يحبون ان يكرهوا الناس ويحقدوا عليهم ان وجدوهم مختلفين عنهم قليلا، كنت اظن انني كثيرة الاصدقاء وان من اعتبرهن صديقاتي يحببنني صدقا وليس ادعاء، كانت صديقتي بشرى تريد ان تلفت نظري الى ان بعض المدعين بانهن صديقاتي انما يكذبن، لم اجد في صفاتي ما يدعو الى هذا الادعاء:

- لأنك مجتهدة في اغلب الدروس وتساعدين الصديقات في الحصول على الاجابات الصحيحة!

- وهل امنع عنهن المعلومات ان عرفت انهن لايحببنني؟

- قد لا تجلسين في اوقات الامتحانات قريبة منهن! وانهن كثيرات واجاباتك في الرياضيات صائبة اغلب الأحايين!

- خديجة هاجتمني صراحة وبقيت امنحها اجاباتي الصحيحة!

- لكنك نظرت الى مدرسة الرياضيات بطريقة فهمت منها انك لا تريدين الجلوس قرب من يسرق منك الاجابات!

انا لم انظر بطريقة معينة، انما مدرسة الرياضيات عرفت مستوى خديجة الفعلي وادركت انها لا تحرز الدرجات العالية دون

مساعدتي! لا أحب ان اخالف الانظمة، لم اعط احداهن اي معلومة ÷ ، انما نظرهن قوي ويستطعن الاطلاع على اجاباتي!

خديجة اكتفت بانها هاجتمني لأني احمل افكارا لا تناسبها، ولم تظهر عدواتها لي مرة أخرى، لكني أتفاجأ كل لحظة ان بعض الناس كنت مجانبة للصواب حين ظننت انهم يتميزون بالصدق، وكثيرا ما اخبرتني ان الصدق نادر الوجود، واننا يمكن ان نكسب الصادقين من الناس عن طريق المتاعب التي ترينا اياها الحياة، وقد ادركت اخيرا ان المصاعب المرة قد تذيقنا طعمها العلقم ان تخلى صديق عنا أثناء مرورنا في طريق وعر ...

فرحت اليوم كثيرا حين قالت مدرسة الرياضيات انني احسنت الاجابة في درسها وقد تأسفت لأن نتيجة الامتحانات قد ألغيت بناء على اوامر السلطات الجديدة، نسيت متاعب الجلسة التحقيقية التي عقدتها لي المدرسات الثلاث بالاتفاق مع توجيهات المديرة التي تتلاءم مع النظام الجديد الذي جاء لقمعي، وأسأل نفسي: - ماذا فعلت انا من اثام يمكن ان اعاقب عليها؟ هل يرون ان القراءة التي أحبها ذنب يستحق العقاب؟ تناسيت ما حل بي من افتراءات وجهتها لي مدرسة الانجليزية التي لا ادري ماذا تريد ان تفعل لي؟ حل درس الجغرافية ودخلت مدرسة المادة التي عرفت بالإنصاف وانها تعطي كل ذي حق حقه، ورغم انها لا تتفق معي في الأفكار التي اؤمن بصحتها، الا انها تحمل عقلا نيرا لم تهاجم احدا وكثيرا ما دافعت عني وعن حقي في الايمان بالرأي الذي اجده صحيحا، ونحن مصغيات الى شرح الاستاذة القديرة واذا بالباب يدق، واذا

بالعاملة تقول:

- في الادارة يريدون الطالبة سميرة وزميلاتها!

- سميرة وزميلاتها لديهن درس، سوف تلبي الطالبات طلب الادارة في نهاية الدرس!

يمضي وقت قصير، وتعود العاملة:

- على الطالبة سميرة وزميلاتها الذهاب الى الادارة حالا!

- هيا اذهبن يا بناتي، سوف اعيد لكن شرح الدرس بعد عودتكن!

(٢٨)

قال رئيس لجنة التحقيق للطالبات الأربع:

- أقسم بشرفي ان التي تذكر الحقيقة سوف تكون في منزل أبيها هذه الليلة!

- لكننا لا نعرف شيئا.

- يمكن ان تكون احداكن مظلومة، فهل اصدق انكن الأربع متهمات ظلما؟

ترك المحقق سميرة صامتة ووجه الكلام الى الثلاث طالبات:

- ما رأيكن؟ جاءتني الكثير من التقارير تثبت وبالأدلة القاطعة انكن عضوات في منظمة معادية!

- أبدا والله لسن عضوات في اي منظمة، نحن طالبات من البيت الى المدرسة ومن المدرسة الى البيت، لانعرف امرا، ومن يتزوج امنا نعتبره عما لنا!

وجه الرئيس كلامه لسميرة:

- أنت ايضا تعتبرين من يتزوج امك عما لك؟

- امي لا تتزوج غير ابي ولا تعرف احدا نعتبره عما لنا، شقيق ابي هو عمي!

- هكذا ايتها اللعينة! من علمك الكلام؟

- المدرسة!

- اخرسي قليلة الأدب! المدارس لا تعلم أمثالكم! انتم اعداؤنا المارقون!!

- شكرا لك!

- اخرسي يا وقحة!

يوجه الرئيس صفعة الى وجه سميرة، فتشعر باغماءة، تسمعه يقول:

- من صفعة واحدة يحصل لها ما ترون! كيف تكون عضوة في منظمة معادية يتلقى اعضاؤها التعذيب برباطة جأش، ويحاولون ان يخفوا المعلومات التي يعرفونها تمام المعرفة، وهذه التي تظنونها قائدتكم غابت عن وعيها من اول صفعة، قسما سأريك ألوانا من الصفعات والركلات حتى تقري وتعترفي بأسماء من لقنك الدرس فلم يحسن التلقين!

وجه الرئيس ركلة قوية الى سميرة، فسقطت عن الكرسي الذي كانت تجلس عليه، نزلت دموعها غزيرة رغما عنها!

- هل رأيتن جيدا ماذا يمكن ان نفعل لمن يعصي أوامرنا؟ عندي اوامر شديدة بان انزل عليكن العقاب الصارم، جزاء لما

قمتن به من جمع للتبرعات للمتآمرين! واكرر قسمي، ان التي تذكر اسماء من طلب منها التبرع او اعطاها، وان تحدثنا عن كل العضوات والأعضاء في المنظمة المعادية التي جئنا نحن لاستئصال جذورها من ارضنا هذه! من تذكر اسماء صديقات سميرة سوف تبيت الليلة في حضن أمها، تفيق سميرة من اثار الصفعة والركلة اللتين وجهتا اليها، تجد ان غرفة التحقيق خالية من الناس وقد ربط في جانب منها حمار وفي الجانب الأخر بقرة، ولم تر في الغرفة اثرا لكراس كانت فيها اثناء التحقيق.

(٢٩)

هل يمكن ان تكون مديرة المدرسة عدوة لبناتها الطالبات؟ تسلمهن بيديها الى من يسومهن سوء العذاب؟ مديرة مدرستي الست اديبة قامت بما لم يتجرأ العدو المعروف بالإقدام عليه! سلمتنا الى مجموعة الحرس القومي وهي المربية الفاضلة الذي عليها حماية الطالبات، والحفاظ عليهن من اي مكروه قد ينال منهن! المتوسطة التي اودعت بناتها لدى المديرة التي لم تكن وفية للمسؤولية الكبيرة التي حملتها اياها وزارة التربية، كنت استمع الى شرح الاستاذة بفرح، فهي تزودني بأرقى المعلومات واكثرها فائدة، ولم تنتظر ادارة المدرسة كي اكمل الدرس بل كانت مسرعة للإيقاع بالطالبات اللاتي لم يقمن باي اثم يستحقن عليه ان يسلمن من قبل ادارة المدرسة الى مجموعة تحب تعذيب الناس وضربهم، في اللجنة التحقيقية التي اجتمعت فيها ثلاث مدرسات وجهت لي الست

اميرة ابشع التهم وهددتني بان الحبل سوف يطوق عنقي ليحملني على الكلام عن أمور لا احب افشاءها فقد اودعها اصحابها لدي امانه يجب ان احافظ عليها وأصونها ، استمعت اللجنة التحقيقية الى طالبات لم يكن صديقات لي وقد وجهن لي اتهامات انني عضوة معهن في تنظيمات محضورة وانني قمت بقيادة مجموعة من الطالبات لجمع التبرعات لعوائل الشهداء الذين وقفوا ضد النظام الجديد ، ادعت الطالبات اللاتي لا اعرفهن انهن قمن بدفع مبالغ من المال لي لأقوم بإعطائها لمجموعة من الاشخاص ينتمون لحزب يدعو المسؤولون الجدد الى ابادته واجتثاثه من ارضنا المعطاء، سألتني الست اميرة:

- نوال قالت انها اعطتك خمسين دينارا وبهيجة اعترفت انك استلمت منها مائتي دينار وسامية اعطتك عشرين دينارا ، اين ذهبت بالنقود؟ ومن كلفك بجمعها؟ النكران لا يفيدك، جماعتك اعترفت عليك، الاجدى لك ان تقولي لنا الحقيقة!

الست اميرة كانت الوحيدة التي توجه لي الاتهامات عن امور لم اقم بها ، والمدرستان الاخريان سهيلة وراجحة بقيتا صامتتين لم اجب عن اتهامات الست اميرة، فأنا لا اعرف الطالبات الثلاث جميعهن، لسن صديقاتي، لم اتعرف الى نوال ولا بهيجة ولا سامية ، صديقاتي الحقيقيات مفيدة وسعاد وسها وأحلام لم يقلن شيئا امام اللجنة التحقيقية التي شكلتها المدرسات الثلاث بإيعاز من مديرة المتوسطة الست أديبة .....

نسيت ما دار في لجنة التحقيق المدرسية وانا البي الأوامر التي

وصلتني بضرورة التوجه الى ادارة المدرسة، حزنت اليوم لأن صديقتي أحلام قد اجبرها ابوها على التوقف عن المدرسة حين سمع باللجنة التحقيقية المدرسية، هذه الصديقة كانت عزيزة جدا على نفسي، كنت افكر بشأنها وقد غابت هذا اليوم، وسبب لي غيابها شعورا بالألم، ولم يدر بفكري ما الذي جعل ادارة المدرسة تطالب بحضوري وحرماني من الاستفادة من الدروس! اما كان الاجدر بها وهي تدعي انها الحريصة على المستوى العلمي لطالباتها ان تنتظر حتى نهاية الدرس؟ دخلت عرفة الادارة واذا بأربع رجال مدججين بالسلاح يريدون ان يأخذوني معهم!

- اريد ان اتصل بأسرتي لأبلغهم انني معكم!
- هيا اتصلي!
- واريد ان اذهب الى صفي لأخذ حقيبة كتبي واسلم على زميلاتي ومدرستي!
- لا تأخذي حقيبة الكتب ارسليها مع احدى زميلاتك الى بيتكم!

دخلت الصف فبادرتني مدرسة الجغراقية:

- ما الأمر؟ ماذا يريدون منك؟
- يريدون ان ينسبوا لي ما لم اقم به، وهذا لن يكون!

استنكرت مدرسة الجغرافية ما يريدون ان يفعلوه بي وبزميلاتي الطالبات، قالت مواسية:

- لكنّ الله، سوف تعودين الينا بسرعة ابنتي العزيزة!

في سيارة مكشوفة ينقلوني مع زميلاتي الثلاث، الى نادي

النهضة الرياضي، لا يوجهون لي كلمة واحدة، اسمع الاتهامات تتوالى لزميلاتي، وهن يدافعن عن انفسهن بكل قوة، تركوني في السيارة بدون ان يفكروا بإتعابي!

(٣٠)

ظلت سميرة معصوبة العينين، والتهم توجه لها:

- نعرف عنك كل الأمور التي تحاولين اخفاءها، انت مجتهدة في دروسك كلها، تكونين الأولى على صفك، متفوقة في الرياضيات والعربية واحسن من الممتاز فيهما، وانت تكتبين الشعر وقوية في التعبير، وتقومين بإلقاء الخطب الحماسية ومؤدية وعالية الاخلاق ولكنك مصابة بمرض سوف نشفيك منه وهو الانتماء الى العصابة الفوضوية!

- لست منتمية لأحد!

- ان كنت غير منتمية تنظيميا، فانت منتمية اليهم فكريا، قرأت بعض مقالاتك التي تظهر كيف انك ميالة الى افكارهم ومبادئهم! اريد ان اساعدك من تعرفين منهم؟ من استطاع ان يزرع افكارهم في رأسك؟ انت تقرئين كثيرا، لمن تحبين ان تقرئي؟

- أقرا الكتب الأدبية والجرائد الموجودة في بغداد!

- اي جريدة تقومين بقراءتها؟

- اتحاد الشعب والحرية والأهالي!

- من علمك بهذه التركيبة المتناقضة من الجرائد؟ لا بد ان من علمك يعرف بواطن الأمور، ويريد ان تنطلي لعبته علينا! من يشتري

لـك هـذه الجرائـد؟ مـا زلـت طالبـة صـغيرة في الثالـث المتوسـط، وكنت تكتبين وانت في الابتدائية من كان يعطيك النقود؟

- اشتري من مصروفي الشخصي!
- والأن ماذا تقرئين؟ لا توجد اتحاد الشعب!
- لا اقوم بقراءة الصحف!
- هذه ايضا يثبت اننا مصيبون في اتهامك بالانتماء، جماعتك يحبـون القـراءة، ولا يتوقفـون عنهـا، لكـنهم يركـزون علـى مـا يتناسب مع طروحاتهم، ما ينشر في جريدتهم يعتبرونه قرآنا لهم! اي كتاب تعتبرينه قرآنك؟
- القرآن .
- ارى انك قد اتقنت الدور جيدا! انتم لا تعترفون بالقرآن!
- وانا اجده كتابي المقدس!
- لنـدع هـذا، قبـل مجيئـك الى هنـا كمـا نظـن انـك منتميـة لأعدائنا ثمانين بالمائة، وحين سمعتك تتحدثين ادركت انـك منتميـة الف بالمائة، كثيرات ممـن يدرسـن معـك ويعرفنـك اكـدن لنـا انـك عضوة في الجماعات الفوضوية! هل تنفين عضويتك لهذه الجماعة؟
- لست منتمية لأي جماعة؟
- الفوضوية ام النظامية؟
- لست عضوة في اي جماعة!
- والذين اكدوا لي عكس مـا تقـولين! اسمعيني جيـدا، ابـدو لـك لينـا هادئـا، ولكـني قـادر علـى انـزال اقسـى انـواع العقوبـات عليك! عندي أوامر باستعمال الشدة، وسـوف ألجـأ اليهـا ان وجـدت

اللطف ليس نافعا معك!

- ماذا يجب ان اقول؟
- اذكري الحقيقة، من طلب منك ان تجمعي التبرعات؟ ومن استجاب للطلب وكم دفع؟ ولمن سلمت النقود؟

(٣١)

لم يوجه لي كلام قاسي، كنت موضع تقدير واحترام، ما ان يطلب احد من افراد اسرتي شيئا يقنعني بضرورة القيام به وانا ألبيه على الدوام، انت علمتني ان اكون نفسي والا اظهر العناد من اجل العناد فقط، احيانا لا اقتنع بأمر من الأمور للوهلة الأولى، ولكن حين يحاول احداهم اقناعي، لا يجد تعبا ولا صعوبة، وفي المكان الذي اخذونا اليه، كان مكتوبا عليه نادي النهضة الرياضي، لم اجد فيه ما يدل على اي اهتمام بالرياضة وأصحابها، وجهت لزميلاتي تهم، كانت الزميلات يدافعن عن أنفسهن بكل شجاعة:

- انتن عضوات في جماعة ممنوعة!
- لسن عضوات في اي جماعة!
- نحن طالبات من البيت للمدرسة ومن المدرسة للبيت!
- لا نتدخل في السياسة، ومن يتزوج امي اسميه عمي!
- وانت هل يكون عما لك من يتزوج امك؟
- امي لا تتزوج رجلا غير ابي! هي لم تعرف سوى ابي!
- من علمك هذا الكلام ايتها اللعبنة؟

صفعني بقوة على وجهي، شعرت ان دموعي تسيل رغما عني، وان صرخة خوف تنطلق من زميلاتي، سيطرت علي إغماءه قصيرة، سمعت المحقق الاعور يقول:

- من هذه؟

- انها الاولى على صفنا!

- سمعت انها شاعرة وخطيبة، تلقي الخطب الحماسية في المناسبات الوطنية، وتجيد الكتابة في درس الانشاء!

- انها هي!

- راحت في غيبوبة من الضربة الأولى! ماذا سيحصل لها في استمرار التحقيقات، وجماعتها يصمتون مع تنوع أساليب التعذيب متحملين بكل قوة! هذه زميلتكم الاولى على صفها لا تمتك قوة الذين يحسبون انفسهم من المناضلين!

تسكت الأصوات من حولي، لم اعد اسمع ما يشير الى المناقشة او الاستجواب، او ان التحقيق ما زال جاريا، بعد لحظات افيق من الإغفاءة، اجد الكراسي التي كانت الزميلات يجلسن عليها قد أزيلت، وقد ربطوا بقرة في احدى الجهات، وفي الجهة الثانية كان الحمار يئن من شدة الاغلال التي تقيده .

رآني احدهم وقد عادت اليقظة الى نفسي:

- سوف نأخذك مع زميلاتك الى مكان آخر، نوجه لكن الأسئلة وانتن تجبن عنها بكل حرية!

يضع الرجل رباطا على عيني كي لا ابصر شيئا، ويقودني الى مكان لا أعرف كنهه، لا اجد الزميلات الثلاث معي، بقيت

زميلة واحدة فقط هي الوحيدة التي اصرت على الكتمان ....

(٣٢)

زار سميرة في المعتقل ثلاثة من الرجال ضيوفا

- في الخارج ضجة كبيرة، كثير من الناس تركوا اولادهم معتقلين واخذوا يطالبون بإطلاق سراح البنات الصغيرات وانت منهن، ذهب وفد الى رجال الدين وطلبوا منهم التدخل لخروج البنات من المعتقلات، غضب رجال الدين وقالوا ليس من المناسب ان تسجن بناتنا الصغيرات من قبل حكومة تدعي انها تريد القضاء على الجماعات الفوضوية وجعل الناس يعيدون الاهتمام بدينهم / فالدين كما نفهمه يدعو الى المحبة والتكاتف وليس الى الفرقة ومحاربة الانسان لأنه يحمل فكرا مختلفا، وعد رجال الدين ان يتدخلوا لإطلاق سراح النساء وفي مقدمتهن البنات في مثل عمرك!

- انت صغيرة كيف تسنى لك ان تعرفي الكثير من المنتميات الى حزب يريدون القضاء عليه، لأن افكاره تقلقهم! هل انت عضوة في هذا الحزب؟

- لا

- انا ايضا اقول لا، ولكن اعترافات كثيرة جاءت تبين انك جعلتهم ينتمون الى حزب ممنوع!

- احتمال قوي ان الاعترافات هذه جاءت بفعل الاكراه، اي واحد يتعرض للتعذيب يفكر بطريقة للخلاص، اظن ان من ادعى ان سميرة قد دعته الى الايمان بأفكار يرون انها هدامة وجد ان

سميرة اشتهرت وذاع اسمها ، فاراد ان يخفف العقاب عن نفسه ويصبه فوق رأس الصغيرة البريئة المتهمة!

- عفوا استاذ ، كيف عرفت ان المتهمة بجمع التبرعات بريئة؟ وكل الادلة تشير الى انها مذنبة وعن سابق اصرار وعزيمة ، هل قرأت مقالاتها التي تدعو الى الايمان بالأفكار التي تتبناها!

- لأني قارئ لما تكتبه سميرة ، فانا اجزم انها بريئة مما يتهمونها به كل البراءة!

- هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين!

- عندي اكثر من برهان واحد!

- اذكرها لنا!

- البرهان الأول ان سميرة صغيرة لم تبلغ السن القانوني للانتماء الى حزب سياسي ، وان كانت كتاباتها تشير الى افكارها فهذا يدل على انها قارئة نهمة تفهم ما تقوم بقراءته ، البرهان الثاني ان سميرة مجتهدة وهي الأولى ، هل يمكن لمن كانت في عمرها الصغير ان تجمع بين ما يتطلبه الاجتهاد من مطالعة واداء للتمارين وانتباه في الصف ، وبين مصاعب الانتماء الى حزب يحاربونه لأنه معروف بالنشاط؟ والبرهان الثالث ان سميرة قارئة للكتب ومجتهدة في المدرسة هل يمكن ان تنتمي الى حزب يتطلب التفرغ فهل من كانت في مثل عمرها ان تتقن الكتابة الادبية وتتقن حفظ الدروس ، وانتم تعرفون ان مناهج الدراسة المتوسطة في العراق قوية ، وتتطلب الكثير من الدقة والاجتهاد! لقد زارت اسرتي مع افراد اسرتها في العطلة الصيفية الماضية ،

استغربت اختي حين تركت الصغيرة سميرة كل شيء واخذت تقرأ روايتي (المدينة تحتضن الرجال) حتى اتمت قراءتها اثناء زيارتهم القصيرة لبيتنا

- هل هناك دليل آخر؟

- نعم اكبر البراهين، ان قريب سميرة الذي كان مقيما في منزل ابيها عضو نشط في القيادة القطرية، هل يمكن ان تكون سميرة عضوة في حزب يريدون وأده وابعاد تأثيره على الجماهير وقريبها الذي يسكن في منزلها الأستاذ صادق عبد اللّه؟

- هل معقول هذا؟

- ليس معقولا ابدا! لهذا جئت زائرا ونافيا التهمة الخطرة عن سميرة، فهي قريبة دكتور عضو في القيادة ....

(٣٣)

لم اعرف مؤلف رواية (المدينة تحتضن الرجال) حين اتى مع رجال اربعة لزيارتي في المعتقل، الرواية أعجبتني حين ذهبت مع امي واخواتي لزيارة اسرة المؤلف، اخذت اخته تدعوني لرؤية البيت الذي يقيمون فيه، فرحت للدعوة، في احدى الغرف رأيت كتابا في نسخ عديدة موضوعا على سرير كبير، مفروش بعناية، اخت المؤلف كانت تعرف انني اعشق القراءة:

- هذه رواية جديدة؟

- نعم انها مكتوبة بقلم اخي! له مؤلفات وبنسخ كثيرة!

- حقا؟ هل يمكنني ان اقرأ هذه الرواية؟

- نعم بكل تأكيد! وسوف اهديك نسخة منها!

سلمتني شقيقة الكاتب النسخة، وما ان استلمتها بيدي حتى نسيت المنزل المضيف واسرتي الضيفة، وشرعت بالقراءة، اخذتني أحداثها المتشابكة الى اجوائها، اضطجعت على الفراش الوثير على ذلك السرير الكبير، ولم افق من الاحداث الا بعد ان وصلت الى الصفحة الاخيرة وقرأت كلمة (النهاية) جاءت اختي سهام وهي تخبرني:

- تقول امي حان وقت الانصراف!
- الآن؟
- نعم، بقينا هنا اكثر من ساعتين!
- وانا مع الكتاب؟
- نعم قدموا لنا الشاي والكليجة والفواكه، ارادوا ان يقدموا لك ايضا، فوجدوك غارقة في القراءة!
- حسنا فعلوا، كتابهم اسعدني!

حين وجدت المؤلف الزائر حريصا على ان يدافع عني وازالة الشكوك التي أثارتها كتاباتي وقراءاتي، فهو يعلم ان محب القراءة والكاتب الحريص على التعبير الصائب عن الفكرة قد يكون بعيدا عن الانتماءات لمنظمات سياسية، وكل ما يسعى اليه هو ان يكون حرا ليعبر عما يريد دون ان ينفذ ارادات غيره، عرفني المؤلف باسمه وقد كان مع رجال اربعة لم اعرف اسماءهم، ولم أسأل عنهم، رجال الشرطة الذين سمعوا دفاع المؤلف عني، ومعهم اشخاص من المسلحين الذين اشتركوا في حملات الاستجواب قد

بلغوا رؤساءهم ما ذكر في الزيارة، من ان قريبي عضو كبير، لم يعودوا الى حفلات التعذيب مرة اخرى، بل كانوا يكتفون بتوجيه بعض الاسئلة عن امور كثيرة ..

سألتني زميلات التوقيف وهن كثيرات، بعضهن كبير في المنظمة التي يريدون وأدها، والبعض الآخر له موقف ووجهات نظر تدعو للحرية بعيدا عن الانتماءات:

- من جاءك زائرا؟
- كاتب رواية وآخرون!
- هل هم أصدقاء؟
- يبدو ذلك! كيف عرفتم؟
- الاصدقاء يأتونك زائرين، والأعداء يؤلبون عيرهم على العداوة!
- لم افعل شيئا يغري بالعداوة!
- كلامك هذا يدفع لعداوة البعض من الناس، ليس الجميع تستميلهم المواقف الواضحة!
- لم اقم بشيء واعدائي ليس لهم حصر!
- لم يعودوا الى حفلات تعذيبك وهذه بشرى خير!

(٣٤)

يغد ان تبين للمسؤولين ان سميرة قريبة الأستاذ صادق عبد الله لم يعودوا الى تعذيبها في لجان التحقيق وسؤالها عن الأشخاص الذين قاموا بدفع التبرعات لعوائل الشهداء، امروا احدى نزيلات

المعتقل من اللاتي قبض عليهن بتهم السرقة والدعارة . قالت الموقوفة سعاد وهي تروي قصتها لسميرة بعد ان شاركتها المبيت على الأرض وتقاسمت معها الفراش الضيق الذي ارسلته بعض الأسر لبناتها الموقوفات:

- انا مثلك قبض علي في التهمة نفسها؟
- ما هي تهمتك؟
- مثل ما أتهموك به!
- ولماذا اتهموك؟
- انا عضوة في جماعتك عينها!
- لكنني لست عضوة في اي جماعة!
- انهم يقولون هذا!
- ماذا يقولون؟
- انك خطرة رغم وجهك الذي يدل على البراءة وشكلك الذي يثبت انك صغيرة السن!
- من قال لك هذا؟
- اصدقاؤك؟
- ومن هم أصدقائي؟ واين رأيتهم؟
- كانوا موجودين بكثرة في كل مكان!
- لكنك لم تعرفيني قبل ان يأتوا بي الى هذا المكان! كيف تعرفت الى أصدقائي؟ ومن اخبرك انني عضوة في جماعة يريدون محاربتها؟
- كلهم يعرفون هذه الحقيقة!

- اي حقيقة؟
- انك عضوة في جماعة ممنوعة!
- لا تصدقي ما يقولون!
- ولماذا لا تحدثينني انت بما تخفين من معلومات؟
- لا اخفي شيئا!
- ولماذا قبض عليك؟
- يحصل كثيرا انهم يقبضون على الأبرياء!
- انا نكرت في البداية ما وجه لي من تهم! لأنهم شاهدوني
- من الذي شاهدك؟ وماذا كنت تفعلين؟
- كنت احاول السرقة ولكني لم انجح!
- لماذا حاولت السرقة؟
- لأحصل على النقود!
- وهل انت فقيرة؟
- لا ..
- ولماذا حاولت السرقة؟
- لأجعل نقودي كثيرة!
- وماذا تعملين؟
- لا عمل ثابت لي!
- ممن تستلمين المال؟
- اقوم بأعمال كثيرة ولكنها ليست ثابتة!
- مثل ماذا؟
- الحياكة والخياطة وفتح الأقفال!

- اعمال مختلفة!
- نعم وقد سمعت انكم تشجعون السارقين!
- لا احد يشجع السراق عزيزتي، بل نقوم بتأييد من يكسب المال بعرق الجبين!

تسكت السارقة وتدرك انها عاجزة عن جعل سميرة تدلي بما تخفيه

(٣٥)

سعاد اخذت تتقرب مني، كانت صامتة في البداية، وحين وجدت ان كل واحدة من المعتقلات في مركز الشرطة هذا تتحدث عن قصتها مع الاعتقال، وتروي للسامعات قصصا متنوعة عن الطرق التي اتبعها المحققون معها لتعترف بما قامت به من اعمال، وتكشف عن اسماء الزميلات اللاتي شاركنها في الاحداث، حتى محبة القراءة اصبحت الان مثارا للتساؤل واثارة الشكوك في دوافع الانسان كي يكون مختلفا عن بقية البشر، استمعت للقصص العديدة التي روتها المعتقلات، ولم أبدي تعليقا، القصص التي سمعتها اعجبتني كثيرا، فانا للمرة الأولى في حياتي ارى بطلات القصص اللاتي يقمن بدفع الناس الى النضال من اجل عالم افضل، وكنت قبل الآن اكتفي بالقراءة فقط، وكثيرا ما عاشت معي اؤلئك البطلات الشجاعات اللاتي لم تكتفي الواحدة منهن بكل الانتصارات التي حققتها لحياتها الشخصية فقط، انما كانت الواحدة منهن تقوم بأروع الاعمال وتتحمل اقسى الاحوال

لتجعل حياة الناس افضل، اصبحت استمع لرائع القصص وجميل الأعمال من زميلات لي كنت اشاركهن الفراش البسيط الذي نفرشه على الأرض وننام عليها ملتصقات، لا يمكن للواحدة منا ان تتقلب على الجانب الآخر، حاولنا ان نعتاد على حياة المعتقل، وعددنا ثلاثون امرأة وفتاة ننام فوق فراش لا يسع الا عشرا، ونشعر اننا احرار، لي صديقات في هذا المكان، نؤمن اننا قادرات على ان نجعل ما يريده الانسان الفاقد للحرية في هذا المكان الضيق بسيطا وهينا اذا قورن بالأهداف الكبيرة التي تظل في عقل كل انسان يطمح الى ان يكون سعيدا وسط سعداء، ولأنني ابدو صغيرة جدا وكأنني في عمر الثانية عشر تمتعت بحب الزميلات، صارت كل واحدة تحنو علي وتمحضني ثقتها وتحدثني عن قصتها، ارى ان قصص البعض منهن جميلة وتدعو الى الفخر، سعاد بقيت صامتة، ظنننتها مثلي لا تحسن الحديث الكثير، وقامت بأمر بسيط لا يستدعي ان تكون هنا مع الكبيرات، لكن سعاد هذه حدثتني بقصتها واحبت ان تدفعني للحديث عن قصتي التي يزعمون انها غريبة، كما ارادت سعاد ان تدفعني الى ذكر اسماء من كن معي، ولم تكن تدري انني مبتدئة ان قورنت حكايتي مع كل هذا العدد من النساء اللاتي يتعرضن للاستجواب في كل لحظة ولا يجدن طعم الراحة من عناء اسئلة قاسية يرغب المحققون فيفي الحصول على اجابتها مهما كان الثمن، ابتسام الكبيرة الجميلة كانت تعود من حفلات الاستجواب وهي تبكي من اثر التعذيب الرهيب الذي تعرضت له،

وهـــي تبــدي صـــمودا ـ﴿ غــرف التعــذيب وتمنــع دموعهــا مـــن الانسـكاب، ولكـن مـا ان تصـل الى المعتقـل وتـدخل غرفتنـا حتـى نجد مهرا من الدموع ينهمـر، نعـرف انهـا تعرضـت الى تعـذيب قـاس ولم تعترف على الرفيقات .... ونوال الطالبة ـ﴿ كليـة الطـب كانـت تزورها شقيقتها حاملة معها الدجاج المشوي:

- ماذا قدمتم لي وانا ـ﴿ هذا المكان الرهيب؟
- ليس باستطاعتنا ان نقدم اكثر مما نفعل!
- وهـل مـا تسـتطيعونه هـو شـراء دجاجـة مشـوية وانـا المعتقلـة المحرومة من الحرية؟
- نحن معك ونفكـر بحـالك!
- اريد فعلا، وليس كلاما!

تخـرج الشـقيقة وهـي تخفـي دموعهـا بسـبب عجزهـا مـن فعـل شيء، قالت لي حذام وهي توجه لي انتقادا:

- كنت اراك هادئة صامتة، لكني غيرت رأيـي حـين وجدتك تفقدين اعصابك ـ﴿ الحديث مع سعاد!
- وجدتها كاذبة، تدعي النضال وهي سارقة!
- ما ذنبها هي؟ علينـا ان نغير الانسـان، وبـدلا مـن عـلاج بـائس لأمراض مزمنة، علينا ان ندفعها كي تناضل من اجل تغيير حياتهـا والقيام بعمل افضل للتغيير!

(٣٦)

زار الأستاذ صادق عبد اللّه أقرباءه في منزلهم، وقد خلا من ابنتهم الصغيرة سميرة ومن أبيها ، رحبت ام سميرة بزيارته، وقالت له معاتبة:

- القي القبض على سميرة وأبيها وبقيت وحدي لامعين لي، احاول الوصول الى المكان الذي سجنت فيه سميرة، ولا اوفق، وانت عضو كبير في الجماعة ولم تساعدني!

- لم استطع المساعدة رغم انني حاولت!

- كيف وانت كبير في فرقتك! ومطاع وكلماتك مسموعة!

- سميرة لا تريد ان تدلي لهم بالمعلومات التي يطلبونها!

- هي صغيرة لا تعرف شيئا مما تعذبون الناس للوصول اليه، سميرة تقرأ كثيرا وهي مجتهدة، لكنها ليست عضوة في الجماعة التي تحاربونها، ما زالت دون السن الذي يحق لها الانتماء الى حزب سياسي!

- هذا الكلام لا صحة له، من يتحدث مع سميرة يدرك انها عضوة نشطة، لو تطيع ما يطلب المحققون منها، لأطلق سراحها، كما عملوا مع زميلاتها اللاتي تحدثن بما يعرفن وأدلين بما يطلبون منهن من معلومات، سميرة تريد ان يبقى رفاقها في مأمن! ولا تدري اننا سنصل الى كل ما يحاولون اخفاءه، وابو سميرة عليه اعترافات كثيرة، ولكنه ما زال ينكر، ان استطعت ان تقابلي ابنتك انصحيها ان تذكر اسماء من تعرف من اعضاء الحزب الذي

قام بالدفاع عن الحكم الذي اسقطناه، وانا لا أحب أولئك العميان الـذين لا يمكـن ان يبصـروا الحقيقـة، امـا حيـاتهم او اعطاءنـا المعلومات التي نطلبها ...

- هل بلغ حقدك الى هذه الدرجة؟ الا يكفي ما أسلتموه من دماء زكية لأبرياء يؤمنون بوجهات نظر مختلفة عما ترونه انتم .

- الذنب يقع على جماعة سميرة وأبيها، ارادت لجان التحقيق ان تجعل سميرة تشهد على ابيها، فهي تعرف كل اعضاء جماعته، واوراقه كان يخفيها عند ابنته!

- يا ويلكم! هل تريدون ان تخون ابنتي أباها!

- لم يتحقق لنا ما نريد! توصلنا الى حقيقة ان سميرة لها أصدقاء كثيرون يظنون انها بريئة من التهمة الموجهة لها! كما ان احد الروائيين قام بزيارتها نافيا عنها عضويتها في حزب ممنوع!

- سأحملكم المسؤولية كاملة ان اصاب سميرة مكروه!

- لـن يصـيبها شـيء، اسـتطاع اصـدقاؤها ان يقوموا بحملة عالمية لإطلاق سراح الاطفال الصغار من السجون والمعتقلات، واظن ان سميرة ستكون في مقدمة من سيخرج من المعتقل قريبا، لو كان الأمر بيدي لما سمحت بإطلاق سراح احد قبل ان يكشف ما يحاول اخفاءه رغم التعذيب الشديد!

- هل تقر بان سميرة قد تعرضت للتعذيب؟

- في البداية نعم ولكن بعد ان زارها الكثير من الناس طالبوا بإطلاق سراح الصغيرات!

- وانت ما دورك؟

- جاء بعض المعارف الى المعتقل الذي فيه سميرة واخبروا الحراس انها قريبة لي، فلم يستمر تعذيبها، وهناك حملات عالمية في لندن وموسكو يقوم بها اعضاء في احزاب تعادينا وتحارب مجموعتنا، هذه الحملات تطالب بإطلاق سراح جميع الصغار من الجنسين كما طالبت بان تكون النساء بعيدات عن القيود!

(٣٧)

أصبحت مشهورة دون ان ادري، عرف الناس بقصتنا، واننا طالبات صغيرات في المتوسطة، ولم نبلغ سن الشباب بعد، وان مديرة متوسطة بغداد كانت بعيدة عن الواجب التربوي والتعليمي، وبدلا ان تحمينا وترعانا، سلمتنا بيديها مع مدرسات ثلاث الى المجموعة المسلحة التي قامت جماعتها بانقلاب دموي ضد النظام الذي دعا الى التقدم والعدالة وان تنال النساء حقوقهن التي نصت عليها الشرائع السماوية والقوانين الدولية، وفود كثيرة كانت تزور مركز الشرطة الذي اعتقلونا فيه، وتوجه لي اسئلة:

- هل انت سميرة؟
- نعم انا هي؟
- وهل وجدوا مطبعة الحزب عندك؟
- الا ترونني؟ وهل يمكن لمن كانت في سني ان تكون مطبعة الحزب في بيتها؟
- يبدو انك حفظت الدرس جيدا! ألم تقومي بجمع تبرعات لعوائل المجرمين؟

- لا اعرف احدا من المجرمين! ولم اقم بشيء مما تتهموني به!

- اذكري المعلومات التي تحاولين اخفاءها! نريد ان نساعدك!

- شكرا لكم، لا اعرف اي معلومات مهمة لكم!

- وما شأننا نحن؟ سمعنا بقصتك ووجدنا انك ما زلت صغيرة على ان تكوني في مكان بائس، فجئنا نطلب منك ان تقومي بذكر المعلومات التي تعرفين! قد ترين ان ما تعرفينه بسيط جدا ولا يشكل خطرا عليك! ولكن عليك الا تحاولي الكتمان فهو يضرك!

- لا اريد كتمان شيء!

- اصدقاؤك ومحبوك كثيرون وقد طلبوا منا ان نقوم بعمل يفيدك ويخرجك من هنا!

- لا اعرف شيئا مما يطلبون مني!

- سوف نخبر من ارسلنا لك انك لا تريدين التعاون معنا . نحن نحب مساعدتك ولا نضمر لك سوءا!

تخرج هذه الجماعة وتزورني جماعة اخرى لها حديث مختلف:

- موقفك شجاع ونحن معك! رغم صغر سنك تصمدين امام التعذيب! قصتك سمع بها الكثيرون وهناك من يسعى لإطلاق سراح الصغار بناتا وبنين!

- ما الأخبار في الخارج؟

- يعتقلون الكثير من الاطفال! في المعتقلات العديد من الصغار وممن هم اصغر منك سنا!

- لماذا يعتقلونهم؟

- بتهمة الانتماء الى حزب محظور، وقد اغتيل بعض هؤلاء الصغار! ومات البعض منهم تحت التعذيب!

- أطفال وتم اغتيالهم؟ او تعذيبهم حتى الموت؟ أي قبح نعيش؟

- في كل منزل معتقلون وشهداء!

(٣٨)

صدر قرار من ادارة اللجان التحقيقية بإطلاق سراح البنات الصغيرات، بكفالة قدرها خمسمائة دينار عراقي، كفل حارس قومي كل فتاة معتقلة، نودي على الصغيرة سميرة، ولما دخلت الى غرفة التحقيق، بادرها احد الحراس قائلا:

- سوف نطلق سراح كل البنات الصغيرات، نحن لا نعتقل الصغار ولا نقوم بتعذيبهم كما يروج أعداؤنا من جماعتكم!

- وانا لم تطلقوا سراحي!

- سوف نؤجل موعد خروجك من المعتقل بضعة أيام!

- لماذا؟ وانا لم أذنب!

- كلك ذنوب صغيرتي الكبيرة، لنا شروط!

- ما هي؟

- سوف نعتبر هذ العام سنة رسوب لك ولزميلاتك طالبات المتوسطة! اللاتي اشتركن معك في جمع التبرعات!

- لماذا؟ ما ذنب العلوم؟

- كي نؤدبك! نعلم تمام العلم انك تحبين مدرستك وتحترمين مدرساتك، وتعشقين قراءة الكتب، لهذا سوف نخرجك من هنا

بعد أيام ونضعك رهن الاقامة الجبرية في منزلك!

- كيف؟

- نأمرك الا تخرجي من منزلك، والا تقرئي الكتب الممنوعة، والا تستقبلي احدى زميلاتك، وان تقومي بتسجيل كل ما عملته في يومك منذ الصباح الباكر وحتى ساعة نومك، نريد تقريرا مفصلا، لا تتناسي امرا، ولا تظني ان شيئا ما ليس مهما، نحن فقط من يقرر المهم من الأمور وغير المهم .... حتى حديثك مع امك واخوتك واخواتك يجب ان تسجليه بدقة!

- كم ابقى في الاقامة الجبرية؟

- ستة شهور، يمكن ان نمددها ان اظهرت عدم الاستجابة لما نأمرك به، وقد نقلل المدة الى نصفها، فتصبح ثلاثة أشهر، نحن نراقبك، ونعرف انك اكبر مما يظهره شكلك! لا تكتبي ما يفهم منه انك معادية لنا! كنا كرماء معك ولم نقس عليك رغم انك لم تتعاوني معنا، ولزمت الصمت!

- لكني لا أعرف شيئا!

- بل تعرفين، من غير المعقول انك لا تعرفين اشخاصا من الجماعة التي حاربتنا ورفعت السلاح بوجهنا! الا تعرفين احدا؟ لا اصدق مزاعمك! في البيت والمدرسة اشخاص كثيرون كانوا من جماعتكم! بعضهم ما زال يحمل الرأي نفسه! لا نفعل لهم شيئا، نريد معرفة موقف الناس الحقيقي من الأحداث، ومن هم أصدقاؤنا ومن وقف ضدنا! وانت تعرفين الكثير! ابوك الذي جاءنا محتجا على القبض عليك انكر انك تحملين افكارا مناوئة لنا،

بعضهم اقترح ان تقومي بالشهادة على ابيك ومن تعرفين من أصدقائه، ولكني رفضت الاقتراح، انا في منتهى الكرم معك، لهذا اطلب ان تتعاوني معنا ، وان تسجلي كل ما يجري من أحداث، وما تسمعينه من أقوال، والا تنسي امرا!

(٣٩)

أخذ المسؤولون عن المعتقلات، يطلقون سراح مجموعة من المعتقلات كل يوم، يأتي احد افراد الشرطة في المركز ويذكر اسماء المطلق سراحهن بكفالة قدرها الف دينار عراقي لمن كانت كبيرة بلغت الثلاثين من العمر او اكثر، وكانت كفالة الصغيرات اللاتي لم تبلغ احداهن الثامنة عشرة خمسمائة دينار، صديقتي المقربة السيدة بثينة، والتي نعتبرها من المعتقلات المخضرمات ذكر اسمها ضمن المطلق سراحهن لم تسلم على زميلاتها المعتقلات ولم تقم بتوديعهن، كما فعلت بقية الناجحات في الحصول على الحرية، ساءني موقفها وكنت احبها كثيرا، كنت اعرفها منذ سنين، فهي كاتبة مشهورة ولها مواقف شجاعة في الدفاع عن حقوق الناس وخاصة المرأة، لكني لم اتعرف عليها شخصيا الا هنا، في المعتقل، حيث جلبوا كثيرا من النساء اللاتي لهن مواقف شجاعة، قرأت السيدة بثينة على قسمات عدم ارتياحي:

- لا تصدقي بما يدعونه من اطلاق سراح المعتقلين! نصف من ذكرت اسماؤهم ضمن مطلقي السراح سوف يعودون الى هنا!
- كيف عرفت؟

- أعرف أساليبهم، وادرك انهم ذكروا بعض الأسماء لبعث الطمأنينة الى الرأي العام العالمي والعراقي!

- لماذا؟

- هناك حملة كبيرة يقوم بها مفكرون ومثقفون لإطلاق سراح سجناء الرأي المطالبين بالحرية!

- أنت ستنعمين بالحرية؟

- انا وعدد من الأشخاص الذين يعرفون بمواقفهم الثابتة سيعودون غدا او بعد أيام قليلة! ومع هذا سوف اودعك، فأنت صديقتي التي كسبت صداقتها في هذا المكان وافخر بها واعتز!

تقوم السيدة بثينة بتوديع الزميلات وبينهن انا وتقبلهن، يؤلمني قلبي لسماع الخبر الذي توقعته السيدة العزيزة، فأنا احبها وارجو ان تتمكن من مواصلة طريقها في النضال من اجل ان ينال الانسان حقوقه التي حرم منها، تغادر السيدة بثينة مع مجموعة من المعتقلات ذكرت اسماؤهن قبل قليل، احاول ان اجلب الفرح الى نفسي التي أرهقها ان يعود القيد الى اشخاص لا يستحقون ان ينالهم الأذى، لأنهم يحبون الناس ويسعون لتحقيق مصالحهم، في الثالثة مساء سمعنا نبأ اطلاق سراح بعض المعتقلات، وبعد ساعات قليلة وصلتنا السيدة بثينة مع نساء جديدات، أدخلن المعتقل للأسباب نفسها التي جعلتهم يعتقلون السيدة بثينة قبل شهور، في التاسعة من صباح اليوم التالي قرأت في منشور اسماء جديدة لمعتقلات سوف ينلن نسيم الحرية اخيرا، كان اسمي ضمن الأسماء الجديدة التي أعلن عنها صباح اليوم، قالت لي السيدة

بثينة:

- لا تقومي بتوديعنا، اخشى ان يعيدوك الى هنا غدا وأتوقع ان يحصل هذا بعد أيام!

- انا ايضا اتوقع ان يحصل هذا بعد ان اعادوك مع مجموعة من النساء الى قيود المعتقل، أطن انهم لن يقوموا بعمل قد يريح الناس ويسعدهم!

- لا تحزني، فان القيد لن يظل معنا! حياة السجون ليست دائمة!

- رغم انهم حرموني من اسرتي ومن الناس الذين احبهم، فقد كسبت هنا صديقات كثيرات اعتز بصداقتهن ما حييت!

- قد يتحول المعتقل الى مدرسة يتعلم فيها المرء ما عجز عن تعلمه اثناء وجوده حرا، فالشغل احيانا وعدم التفرغ تحرم الانسان عن اكتساب بعض العلوم!

(٤٠)

بقيت سميرة في المنزل لثلاثة اشهر، سمح لها بعد انقضاء الشهور الأربعة ان تخرج من منزلها، استطاعت ان تتكيف مع مكوثها في المنزل، وتمكنت ان تقرأ في فترة بقائها في الاقامة، الجبرية امهات الكتب في السياسة والاقتصاد والاجتماع وعلم النفس، نصحها المحامي الدكتور ضياء ان تقرأ في كل العلوم والا تقتصر على مجال واحد، فالحياة لا يمكن حدها وكلما تنوعت قراءات المرء قويت تجربته وكبرت معارفه واستحق احترام

الجميع، قال لها:

- السياسة التي تحبين قراءة كتبها بحر واسع لا يعرف الهدوء، امواجه صاخبة، اقترح ان تقرئي في كل مجال، لتصبح الحياة غنية امامك، ولتستفيدي من تجارب كل الكتاب الذين قرأت كتبهم واطلعت على آرائهم!

اقتنعت سميرة بوجهة نظر الدكتور ضياء، واخذت تنهل من بحور الكتب ما استطاعت، كما اقترح الدكتور ضياء:

- حين تقرئين كتابا، سجلي تاريخ قراءته وفي اي مجال من مجالات المعرفة كان، ومن هو كاتبه وماذا استفدت من قراءته، سوف تتكون لديك معلومات قيمة كبيرة وتحوزين على ثروة، سوف تعجبين انك قمت بقراءة كنوز العلوم والآداب، وان سنين عمرك لم تذهب سدى، فقد استطعت ان تكسبي علما وأدبا وتحصلي على معرفة كبيرة، قد لا يمكن الوصول اليها لغير القارئين الحريصين على المعرفة الحقة!

وضع الاستاذ ضياء كنوز مكتبته الكبيرة امام سميرة، لتغرف من بحور العلم وتنهل من كنوز الجمال، وكان يناقش سميرة حين تنتهي من قراءة احد الكتب، ويحثها على تسجيل رأيها بما قرأت، كما كان المحامي ضياء يشجع سميرة على ارتياد المكتبات العامة التي تنتشر في بغداد، وان تستعير الكتاب الذي تريد بمبلغ نصف دينار، وتعود الى منزلها وتقوم بقراءة الكتاب الذي استعارته، وتنفذ نصيحة الاستاذ ضياء بتسجيل تاريخ قراءة الكتاب وتبيان رأيها فيه، ثم تعود الى المكتبة العامة في اليوم

الثاني او الذي بعده، وتستعير كتابا آخر، بنصف الدينار الذي وضعته في المكتبة، تجد سميرة في نهاية العطلة الصيفية ان سجلا كبيرا قد كتبته فيما قرات، وعنوان الكتاب واسم المؤلف والمجال الذي كتب فيه المؤلف كما تحرص سميرة على تسجيل رأيها في الأفكار التي دافع عنها الكتاب ... ظل الاستاذ ضياء بجانب سميرة يناقشها فيما قرات من انواع الكتب، فأصبحت متحدثة ماهرة تبين رأيها بصراحة فيما يجري من امور، وتدافع عن كل معتقداتها بهدوء حرصا على كسب الانسان الذي تتناقش معه، وحفاظا على اواصر الصداقة التي تربطها بكل معارفها ..

انتهت العطلة الصيفية، وعادت سميرة الى متوسطة بغداد التي سلمتها ادارتها في السنة الدراسية الماضية هي وزميلاتها الى الجماعات المسلحة، حرصت ادارة المدرسة في العام الدراسي الجديد ان تفصل سميرة عن زميلتها بان تضع كل واحدة في صف، وامرتهما الا تكلم احداهما الأحرى، بقيت سميرة في متوسطة بغداد التي حسبت العام الدراسي الماضي سنة رسوب لسميرة وزميلاتها، لم تستطع سميرة ان تتحمل سوء المعاملة، فنقلت نفسها الى متوسطة اخرى، وجدت فيها حسن المعاملة والتقدير من الادارة والطالبات.

(٤١)

أطلق سراحي بكفالة مالية قدرها خمسمائة دينار عراقي، لم اعرف من قام بكفالتي وهو احد افراد الحرس القومي، اتصلت بقريب لي كان يسكن في منطقة سكني وطلبت منه ان يأتي

ليوصلني الى البيت، جاء قريبي بسرعة في سيارة احد أصدقائه، رأيت الشوارع وقد كبرت وزادت عرضا، لم اقل شيئا، لاحظ القريب صمتي، وقال:

- انت مع اصدقاء وقد نلت طعم الحرية الآن! كيف تجدين الشوارع؟

- اراها كبيرة واكبر مما تركتها!

- لاحظت انك تنظرين الى الشوارع بإعجاب كبير! اعرف حياة المعتقلات والسجون واقدر شعورك!

- كيف هم اهلي؟

- اخبرتهم انك في طريقك اليهم حين اتصلت بي! لابد ان الفرحة لا تسعهم!

- بقيت شهرين وبعض الايام وكأنني بقيت دهرا!

- اعرف ذلك، حياة المعتقل رهيبة!

- رغم ان امي قد زارتني في المعتقل في بداية الاعتقال، فأنا اشتاق اليها وكأنني قد فارقتها منذ سنة!

- بعد قليل ستكونين في بيتك ومع امك واخواتك واخوتك!

- وأبي؟ ما أخباره؟

- لم يطلق سراح احد من الرجال، اكتفوا بإطلاق الصغار ومن البنات اكثر من الأولاد!

- اطلق سراح الكثيرات؟

- لم يتم اطلاق الجميع! بقي الكثيرون في المعتقلات، وقد سمعت ان حملة عالمية قامت لجعل المعتقلين يتمتعون بالحرية!

- سمعت بهذه الحملة، وقد وجدت انهم لبوا بعض المطالبات العالمية بالحرية للمعتقلين الذين يؤمنون برأي مختلف عما يراه الانقلابيون!

- لا يمكن ان يصل الجميع الى حياة الحرية، والا لم يعد الانقلابيون محاربين للتقدم!

اشترك سائق السيارة في الحديث قائلا:

- قبض على اثنين من اخوتي واختي الكبيرة ولم يتم اطلاق سراح احد من اسرتي!

- وما سبب الاعتقال؟

- كالعادة دائما، تهمة الاعتقاد بأفكار هدامة! اختي قاموا بمحاكمتها!

- وما الحكم الذي اصدروه؟

- السجن ثلاث سنوات وكان الحكم مخففا كما اظن، صديقات اختي حكم عليهن بالسجن المؤبد!

- مجرد ان يؤمن الانسان برأي لا يتفق معه الانقلابيون يتعرض للموت!

- مسلسل الاعتقال والسجون مستمر، ومن يجدونه لا يعبأ باعتقالاتهم يعرضونه للإبادة والطرق كثيرة، التعذيب او الاعدام ان كان التعذيب القاسي لا يحقق لهم ما يريدون من اجتثاث فكر يزرع الابتسامة في هذه الأرض!

(٤٢)

وجدت البيت الذي فارقته مضطرة، مدة سبعين يوما، قد كبر واتسعت اركانه، لم تصدق امي انني مطلقة السراح واقف امامها لتحتضنني والدموع تملأ مآقيها، لم تكن تبكي وكثرة ما مر بها من مصاعب وما نالها من مآسي جعلت الدموع تنضب – هل استطعت مقابلة ابي؟

- حاولت ولم اتمكن، لم اعرف اين يقع سجنه، سمعت اشاعات كثيرة عن اماكن سجون الرجال والنساء!

- زرتني مرة واحدة!

- حاولت كثيرا ان يسمح لي بزيارتك، وكانت كل طلباتي تذهب عبثا!

- أبي زارني في اليوم الأول، كان المحققون حولي، وقد انتزعت عباءتي وحذائي وجواربي، وآثار التعذيب واضحة على اجزاء من جسدي، وخز الدبابيس على الكتف وضرب العصا على القدمين، طلب ابي ان يعتقل بدلا مني وان اخرج انا!

- لكنهم لم يستجيبوا لطلبه، وتم اعتقاله بعد يومين، بعد ان اخبر جميع اصدقائه ومعارفه وكل المهتمين انهم يعتقلون الصغيرات!

ادخل غرفتي واجدها مختلفة كثيرا عما تركتها، لا اعرف موضع الاختلاف، ولم استطع ان أفعل شيئا، الأفكار كانت تتنازعني، فتحت المذياع استمعت الى نشرة الاخبار، وجدت كل

شـيء لا يبعـث السـرور الى نفسـي المجهـدة، اغلقـت المذياع، نزلـت لأشاهد ماذا في التلفزيون، كانت المشاهد لا تسر احدا ، :

- ارتاحي يا ابنتي قليلا ، لن تجدي ما يفرحك هذه الأيام!

زارتنـا احـدى صـديقات امـي واقترحـت ان اغـير سـكني في الوقـت الحاضـر، فـان الجماعـات المسلحة لاتـدع احـدا مـن مطلقـي السـراح يرتـاح بعيـدا عنهـا ، لابـد ان يـأتون غـدا ويـدخلونك احـد معتقلاتهم الكثيرة، ايدت امي مقترح السيدة الزائرة، وقالت:

- منـزل عمتـك بعيـد ، ولـن يسـتطيعوا ان يعتقلـوك مـرة اخـرى بسهولة!

- هل اذهب الى بيت عمتي؟

- ستزورك هي هذا اليوم .. عرفت انك خرجت!

بعد قليل تصل عمتي:

- ستكونين في منزلي في مأمن مؤقت! وهنـاك اصـدقاء اعـزاء من جيراني يحملون نفس افكارك!

- لكـنهم فرضـوا علـي الاقامـة الجبريـة في منزلـي، فكيـف اغادر البيت الى منزل عمتي؟

- امكثي في بيتي ولا تغادريـه، مـا يريـدون بقـاؤك بعيـدة عـن نشاط صديقاتك السياسـي كوني بعيـدة قليلا ، و لتجنبي نفسـك الوقوع في غياهب السجون مرة أخرى

- هنا عرفني الجميع!

اخـذ معـي بعـض الملابـس وقلمـا ودفـترا ، افكـر اي الكتـب يمكن ان تكون صديقا لي في سكني الجديد؟

تجيب عمتي عن تساؤلي:

- لا تفكري كثيرا صديقنا وجارنا الأستاذ ضياء عنده مكتبة كبيرة تضم روائع المعارف و اقترح ان تقيمي في منزلي هذه الأيام!

(٤٣)

انتقلت سميرة الى متوسطة اخرى، بعد ان وجدت ان الادارة في متوسطة بغداد ما زالت تسيء معاملتها، وتمنع زميلاتها من التحدث معها، بحجة انها عضوة في جماعة فوضوية، وجدت سميرة في متوسطة البنات الجديدة راحتها، اصبحت صديقة لكل الطالبات واستعادت الحياة التي حرمت منها في متوسطة بغداد، التي تتميز ادارتها بالقسوة والعنف وعدم احترام الطالبات، والرغبة في تقريعهن مهما كن هادئات ومؤدبات، ومعروفات بالاجتهاد وحسن السيرة ولطف الكلام، اضطر والد سميرة ان يبيع منزله في منطقة الكرادة بثمن بخس، لقد شهد منزله السابق توقيف ابنته وتوقيفه وانفراط عقد الصداقات المتين الذي كان يربطه بالعديد من الناس، استأجر الوالد الحنون منزلا متواضعا في بغداد الجديدة، اخبرته ابنته سميرة:

- في المشتل متوسطة جديدة اخبرتني عنها صديقتي سها ...

- اطلبي نقلك اليها يا ابنتي، ارجو ان تكون المتوسطة هذه تختلف عن متوسطة بغداد بقسوة ادارتها وفظاظة مدرساتها!

- متوسطة المشتل جديدة، سمعت ان ادارتها حكيمة، وليست

مثل تلك التي تسلم طالباتها للجماعات المسلحة!

- انسي قسوتهم والمرارة التي سببوها لك، والسنة الدراسية التي لم تحسب لك وضاعت، رغم انك كنت الأولى!

- انها فترة قاسية من العمر، نستخلص منها الدروس ..

- ارجو ان تكوني الأولى في المتوسطة الجديدة .

- سأكون الأولى يا ابت، انا ابنتك!

تسجل سميرة في المتوسطة الجديدة، فتحوز على اعجاب مدرساتها وزميلاتها، وتتعرف الى بعض الأسر في منطقة بغداد الجديدة، وتخبرها الجارة ام نضال:

- كل البيوت هنا مر افرادها بنفس التجربة القاسية التي مررت بها، جميعنا اعتقلنا وشرد اهلنا وبعضنا قتل رميا بالرصاص او بفعل التعذيب، انت ما زلت صغيرة وننظر بإعجاب الى مسيرتك الشجاعة رغم صغر سنك!

- شكرا لك خالتي، اطمح ان نكون أصدقاء!

- نحن اصدقاء الآن، كنت اسمع عنك، سوف تتعرفين على بعض الأسر هنا، ابو فرات ما زال في السجن، حكم عليه عشر سنوات، وفرقد الابن الأكبر لأمه الأرملة هرب الى حارج العراق، واخذ يرسل النقود الى امه التي تريد رؤيته، ولكنها مطمئنة فهو بعيد عن أعين القساة الجلادين، وام نهى وحيدة مع بناتها الثلاث بعد وفاة زوجها الذي لم يترك لها شيئا، ولكن الحمد لله ابنتها نهى في السنة الرابعة طبية، سوف تحقق امل امها بعد سنين من التعب والحرمان.

(٤٤)

أقسى شيء ان يمر بك الشخص الذي كنت تعتبره صديقا ، فينظر اليك بلامبالاة وكأنه لم يعرفك يوما ، لم ابال حين فرقتنا ادارة متوسطة بغداد عن صديقتي مفيدة ، والتي قضيت معها وقتا طويلا في معتقل واحد ، ورغم انهم وضعوا كل واحدة منا في غرفة ، الا اننا كنا نتقابل وتحدث الواحدة منا صديقتها بالتقدير والحب، اصابني الحزن هذا اليوم وانا اعود الى مقاعد الدراسة بعد انتهاء العطلة الصيفية ، الى نفس المتوسطة التي نكلت بنا وسلمتنا الى جماعة مسلحة ، عذبتنا واضطهدتنا ، بعض الطالبات اللاتي كنت اظن انهن صديقات مخلصات لي ، تحملت التعذيب وانا صامتة ولم افشي اسرارهن التي اعرفها جيدا ، مررن بي وكأنهن لم يعرفنني ابدا ، لم ينلهن التعذيب ولم تضع سنة دراسية منهن، بل واصلن الحياة بطبيعتها ولم يتعرضن لما تعرضت له ، وحين اتفقنا انا ومفيدة ان نتمشى في مساء هذا اليوم بعد قيامي بزيارتها في منزلها ، رحبت بي اسرتها كعادتها دائما ، وجدت اباها وامها حنونين عطوفين كما ينبغي بالأمهات والآباء ، وحين قررنا ان نقوم بما اتفقنا عليه من التمشي قرب منزلنا شاهدتنا الزميلة سعاد التي اشتركت معنا في حملة جمع التبرعات ولم اخبر من حقق معي عن هذا الامر ، وصمت واستمرت مفيدة في صمتها ، ولم تحرم سعاد من السنة الدراسية كما حرمت كلانا ، اقترحت سعاد ان ترحب بنا في بيتها ، فقد كان قريبا من المنطقة التي كنا

نتمشى فيها ، ما ان دخلت المنزل حتى فوجئت بصراخ امها :

- من جاء بك الى هنا؟ الا يكفيك ما حل بنا من تحت رأسك؟

شعرت ان الأرض تميد من تحت قدمي، وان كل ما لاقيته من تعذيب وفصل من المدرسة وتنكر البعض لي هين وبسيط، فان موقف سعاد التي تحملت التعذيب من اجل المحافظة عليها اصابني بحزن لم اذق مرارته الا هذه اللحظة اردت ان اغادر بيتهم في نفس الوقت الذي اسمعتني امها ترحيبها بي، الا ان سعاد توسلت بي ان اسامح امها فهي حزينة ومرت بتجربة مرة، تناست الزميلة ما اصابني واصاب امي وابي، و ان كنت انا مطلقة السراح في هذه اللحظة، فان ابي لا اعرف ما حل به، وما انزله به الغادرون، خرجت من منزل الزميلة بعد دقائق وانا أكاد لا ابصر شيئا، لم ادر اين انا؟ ولا اعرف اين يقع منزلي؟ وكيف اعبر الشارع؟ كادت سيارة مسرعة ان تصيبني لولا ان سيدة ابصرتني:

- انتبهي يا ابنتي! امامك سيارة! ما بك وكأن الدم هرب منك! ماذا حدث؟

لم استطع ان اقول شيئا ، هربت الكلمات مني، رأتني وانا في هذه الحالة جارة لنا فقالت:

- ماذا اصابك يا ابنتي؟ تحملت كل شيء بصبر خارق! ماذا اصابك الآن؟

قادتني الجارة الى منزلنا ولم اشأ ان اخبر امي بما حدث لي، احببت ان يبقى ذكر صديقاتي عاطرا ..أطلق سراحك واخبرتك بكل شيء أحزنني

حدثت ابي عما جرى لي في المدرسة، وكيف انهم فصلوا بيني وبين صديقتي مفيدة، ووضعوا كل منا في صف، وان صديقتي سها اخبرتني ان متوسطة جديدة في المشتل قد فتحت قبل يومين، والمشتل اعرفه جيدا، كنت في احد منازله في بيت عمتي بعد أيام قليلة من خروجي من المعتقل وتمتعت هناك بقراءة كتب متنوعة في مكتبة الأستاذ ضياء ....

في متوسطة جديدة في المشتل قضيت اوقاتا سعيدة، لم تكن بناية المتوسطة بعيدة، دقائق اقضيها في سيارة عامة لنقل الركاب، وأصل الى متوسطتي مبكرة، احرص على الوقت دائما، وان اكون في مدرستي قبل دق الجرس بدقائق، وان اسعد مع الطالبات في احتفال تحية العلم صباح كل خميس، اقوم بإلقاء الخطب التي تدعو الى العلم واحترام الخلق النبيل ومراعاة الضعيف واغاثة الملهوف، نصحوني ان ابتعد عن السياسة، فان المسؤولين في وزارة التربية لن يوافقوا ان تكون خطب الطالبات ذات اغراض سياسية، تعرفت الى صديقات كثيرات في جو يدعو الى العلم والمعرفة دون ان يفرض أحد قناعاته على الطالبات، تمضي الأيام وانا فرحة انعم بالتقدير والاحترام واحرص على ان اكون الأولى دائما على الصف، وان احرز التفوق الكبير في درسين احبهما اكثر من الدروس الاخرى، وهما العربية والرياضيات، مديرة المتوسطة كانت سيدة رقيقة دمثة الخلق لا تحب ان تقرع واحدة من الطالبات بل تعمل على احترام الجميع وتقديرهن.... واستطعت ان اكون الأولى على صفي في الثالث المتوسط.. وأخذت افكر في الثانوية التي علي التسجيل فيها، لاحافظ

على اجتهادي وهواياتي واحترام الناس وتقديرهم، وفي بغداد ثانويتان للبنات، ايهما الأكثر مناسبة لي، قريبة من مسكني ولا اجد فيها مضايقات قد ذقتها ايام المتوسطة!

(٤٥)

اتصلت رابحة بصديقتها سميرة، وأخبرتها ان هناك مديرات لمدارس البنات يتميزن بالعطف والحنان نحو طالبات مدارسهن، ويحافظن على وجود الطالبات ورعايتهن طيلة فترة الدراسة:

- مديرة ثانويتنا انسانة عطوفة اعتبرها اما لنا ...
- ليست قاسية مثل مديرة متوسطة بغداد؟
- تلك المديرة التي ضربت مثالا على سوء الادارة، لا وجود لها اليوم!

- آنا اعرفها، جربت قسوتها وذقت تعنتها، سلمتني مع مجموعة من الطالبات لم يبلغن السن القانوني للانتماء الى اي مجموعة سياسية، فكيف تتهم طالبات صغيرات بالعضوية في حزب يريدون استئصال جذوره من هذه الأرض؟ وهذه الجذور لا يمكن ان تزال بالقوة! مهما فعلوا، ودائما استعمال القوة مع الناس يأتي بنتائج عكسية!

- مديرتك القاسية يجب ان تقدم للقضاء، لأنها لم تحافظ على الامانة، انسي القسوة التي عاملوك بها الآن واسمعي عن مديرتي الرحيمة!

- من كثرة ما سمعت عن رحمتها تمنيت ان اكون طالبة في

مدرستها!

- اذن سارعي يا صديقتي الى التسجيل في ثانويتنا الجميلة!

- بعد غد اذهب الى ثانويتكم لأسجل في صفوفها ..

- سوف تجدين راحتك فيها، وتتعرفين الى طالبات حقيقيات يقبلن على العلوم والآداب والفنون برغبة شديدة، ولا يقصرن في المواظبة على حفظ الدروس واداء التمارين ..

- هل صحيح ان مديرتكم تجمع بين حنان الام وحزم المديرة الراعية للعلم والحريصة على مستقبل طالباتها!

- لم احدثك عن النبل والشهامة الصفتين اللتين تتميز بهما مديرتنا!

- كنت قبل عام لا تحبينها!

- كنت اظن انها قاسية مثل أغلب المديرات، اتضح لي بعد مرور فترة في الثانوية، ان مديرتها حنونة وراقية الصفات، في صباح احد الأيام ونحن ندخل صفوفنا، اثار استغرابنا ان كل صف في الثانوية وقد انتشرت فيه منشورات من حزب يساري، تحاربه السلطة السياسية!

- كيف تصرفت مديرتك المحبوبة؟

- جاءها رجال الأمن يطلبون منها ان تسلمهم الطالبات اليساريات اللاتي تجرأن ونشرن المنشورات السياسية التي تهاجم نظام الحكم في الساحة والصفوف!

- بماذا اجابت المديرة عن الطلب الغريب؟

- لم يكن طلبهم غريبا، فقد اعتادوا تنفيذ ما يأمرون به من

قبل مديرات المدارس المتوسطة والثانوية والمدراء، اعتادوا - أغلبهم - الامتثال للأوامر حتى لو كانت غير معقولة!

- شوقتيني لمعرفة ما قامت به مديرتكم لإنقاذ طالباتها من عقاب رجال الأمن؟

- قالت لهم المديرة لا أعرف واحدة من طالبات هذه الثانوية يمكن ان تقدم على نشر المنشورات، ولن اتهم واحدة منهن!

- اوامر المسؤولين صريحة ان نسلمهم كل من يقوم بتوزيع المنشورات اليسارية! ولا يمكننا ان نعود خالي الوفاض!

- ان كنتم تريدون ان تعتقلوا طالباتي، فهن بناتي ولا يمكن ان اجعل اي واحدة منهن تتعرض للأذى!

- وما العمل؟

- خذوني انا، فأنا امهن الحريصة على حياتهن!

- يا له من موقف شجاع ونبيل!

- من ذلك اليوم اصبحت مديرة ثانويتنا اما لي وصديقة، احدثها بمتاعبي، فتقوم بنصحي وتسدي لي خلاصة تجربتها في الحياة ..

- سمعت ان مديرتكم تتصل بالآباء ان كانت بناتهم غائبات عن المدرسة بسبب الفقر وعدم قدرة الأب على تدبير مصروف المدرسة .

- لقد قامت بمساعدة بعض الاسر ماليا!

- مديرتكم رائعة، سوف اسارع الى التسجيل في ثانويتها المشهورة ..

(٤٦)

نفذت تعليماتك لي [ان اكون الأولى على صفي دائما ونجاحي بتفوق في امتحانات الثالث المتوسط، فكرت بالتسجيل في الثانوية التي سمعت بها كثيرا، صديقاتي اللاتي تخرجن من ثانوية الجمهورية واللاتي ما زلن يدرسن فيها اخبرنني بالصفات الرائعة التي تتحلى بها مديرة الثانوية، أحببت ان انفذ ما ترغب به انت من التسجيل في الثانوية التي احقق فيها اكتسابا للعلوم والآداب واحرز تفوقا وأنال مكانة عالية، اسرعت الى التسجيل في الثانوية المعروفة، فوجدت الست راجحة احدى المدرسات اللاتي قمن باستجوابي وتوجيه الاتهامات لي في متوسطة بغداد التي سلمتني ادارتها للحرس القومي، صحيح ان الست راجحة لم توجه لي كلاما قاسية كما فعلت الست اميرة، الا انها كانت لا تتأخر في ايذائي، سألتني:

- انت متفوقة في كل الدروس! لماذا لا تسجلين في القسم العلمي؟

- احب الآداب!

- يمكن ان تحبي الآداب وتبرعي بالعلوم ايضا!

وجهت لي نصيحة لم اكن أتوقع انني سوف اسمعها منها، عدت الى البيت مسرورة، اذ حققت مكسبا كبيرا في عملية التسجيل في الثانوية، ولم تمض ساعتان فقط حتى جاء من يخبرني، اذ انني اعطيت رقم هاتف الجيران عند تسجيلي في

الثانوية:

- ادارة ثانوية الجمهورية تريد ان تقابل سميرة!
- متى؟
- تقول الآن!

اسارع الى الثانوية بالسرعة التي امهر بها!

- هل انت سميرة؟
- نعم ..
- اخبروني ا قبل ساعة انك كنت ضمن الطالبات اللاتي قمن بحملة جمع التبرعات لعوائل القتلى الذين وقفوا ضد قيام الحكومة الحالية!
- انها تهمة وجهت لي مع عدد من زميلاتي!
- وقد تم فصلك بناء على قيامك بذلك العمل!
- انها لم تكن سوى تهمة!
- لكنك تحملين افكارا هدامة كما قيل لي!
- انا لا أحمل افكارا من النوع الذي تصفين!
- اتصلت بمديرتك في متوسطة المشتل واخبرتني انها لا تعرف شيئا عن حملك للأفكار الهدامة وانك كنت ضمن طالبات المتوسطة ومثالا للتربية والعلم والخلق الرفيع وكنت الأولى على صفك في امتحانات نهاية العام الوزارية!
- مديرة المتوسطة اثنت علي وانت تريدين ان تصدقي من قدم لك معلومات غير صحيحة للإيقاع بي!
- انا لم اصدق من اراد الاساءة لك! لهذا طلبت ان اسمع

الحقيقة منك!

- لم اقم بأمر يثير الكراهية او يدعو للتفرقة، وقد سمعت انك تحبين المجتهدات الطالبات للعلم والتفوق، فسارعت الى التسجيل في ثانويتك!

- مرحبا بك، سوف استقبلك هذا العام، وارى اي المعلومات التي نقلت لي كان حقيقة وايهما الكاذب!

- وان كان هنا احد الكاذبين يريد الايقاع بي؟

- سوف اطلب نقل الست راجحة الى ثانوية اخرى، لئلا تحرمني من الطالبات المجتهدات الخلوقات ..

- شكرا لك، وسوف اكون تلك الطالبة التي تعتزين بها!

- هذا املي، سوف تجدين هنا طالبات يمنحن الاجتهاد في كل الدروس اهتمامهن الذي يؤهلهن للنجاح والدخول الى الجامعة وتحقيق الطموحات، بالاجتهاد نصل ا لى ما نريد، وأجلي نشاطك السياسي الى ما بعد التخرج، وانظري الى مستقبلك ولا تدعي اي شيء يهدد هذا المستقبل!

(٤٧)

تفوقت سميرة في دروسها في ثانوية المديرة العطوفة واستحقت تقدير المدرسات واحترامهن، كما حظيت بحب الزميلات وصداقتهن، شاركت في المهرجانات الثقافية التي قامت بها الثانوية، وجدت جميع المنتميات للثانوية يقبلن على المشاركة في الأنشطة الأدبية والعلمية والفنية التي دعت اليها الثانوية، وجدت

سميرة نفسها تهتم بالدروس التي لم تحظى باهتمامها سابقا / انضمت الى جماعة المرسم وانضمت الى فريق الرياضة، وشاركت في مجموعة التدبير المنزلي وتعرفت الى افضل الطرق لإنقاذ ميزانية الاسرة من التبخر والضياع، وتعرفت الى ان العمل على شراء المواد الأساسية احسن للفرد والأسرة من تبذير النقود وصرفها على الكماليات من الأمور، شاركت سميرة في الأنشطة الثقافية التي كانت تقام كل اسبوع، فعادت اليها ثقتها القديمة في كتابة الخطب والقائها، بعد ان كادت تفقد هذه الثقة لما مرت به من صعاب، لكن الخطب الجديدة التي كتبتها سميرة اختلفت عن سابقاتها انها لم تكن سياسية بصورة مباشرة، بل تطرقت الى الامور الحياتية بأسلوب ادبي جميل، كانت تدرك ان كتاباتها الأدبية لا تؤلب ضدها الناس ولا تحول الأصدقاء الى أعداء يتخذون موقف المناويء لكل وجهة نظر، لايتفقون معها، اكتشفت سميرة بمرور الأيام انها اصبحت صديقة للمديرة الحنونة، تحدثها بمتاعبها اليومية، وتطلعاتها في المستقبل، وانها تود ان تشتغل في مجال الصحافة، لما لهذا الجانب من اهمية في تحقيق الأحلام التي داعبت خيالها، وتمنت ان تصل اليها بعد سن الجامعة، نصحتها المديرة ان تجد جانبا اخر لتتخصص فيه، ويمكن لها ان تكتب للصحافة التي سوف ترحب بكتاباتها، ، لما تتمتع به من جمال وحسن اختيار للعبارة وفكر ثاقب ورأي صائب في النظر الى الأمور المختلفة التي يمر بها الوطن:

- لاحظت من درجاتك التي تريني اياها مدرساتك انك قوية في

العربية والرياضيات والانجليزية، يمكن ان تتخصصي في احدى اللغتين، واقترح ان يكون تخصصك في الانجليزية فهي لغة عالمية وتحقق طموحاتك التي اعرف انها كبيرة، ولكنك باصرارك الذي اعرفه واقدره، سوف تصلين الى تحقيق كل طموحاتك التي تكبر باستمرار، وهكذا هي الحياة ..

- نعم مديرتي العزيزة، طموحاتي لاحد لها، وهي تزيد وتكبر كل يوم، وانا مع المتنبي الذي قال اريد من زمني ذا ان يبلغني ××× ما لا يبلغ من نفسه الزمن!

- اعرفك ايتها الطالبة المجتهدة واعرف انك من محبي المتنبي مالىء الدنيا وشاغل الناس، وأثق بانك قادرة على الوصول الى مراميك، كما علمت انك من عشاق الموسيقى، سنقيم دورة لتعلم الموسيقى والعزف على العود، فهل ترغبين بالتسجيل بهذه الدورة؟

- نعم احب التسجيل، احب الألحان، وان كانت الموسيقى في بلادنا ليست منهجية كما في بلدان أخرى ..

- حتى الرسم عندنا ليس من الدروس المنهجية وكذلك الرياضة والتدبير المنزلي، وان كنا نعلم هذه الدروس في مدارسنا الا انها لا ترسب في الامتحان!

- والموسيقى ليست من الدروس المقررة من قبل وزارة التربية!
- سوف اسجل معكم في هذه الدورة،
- هل تعزفين مديرتي؟
- اعزف احيانا على آلة العود ..
- سنكون معا مديرتنا العزيزة ..

(٤٨)

احـب الثانويـة الـتي وجـدت نفسـي فيهـا ، مدرسـات يحترمـن الطالبات ويقدرهن وطالبات يحرصن على اكتساب الآداب والتزود بالعلوم والاهتمام بالفنون، ايامي مترعة بسعادة لم اعش مثلها في السنين الماضية ، فهل يعود هذا الى انني قد كبرت هنا وصرت في عمر الشباب، وقبل ذلك كنت طفلة ، زميلاتي الطالبات متفوقات لأنهن يردن التفوق وليس لأن احدا من الناس يرغب في تفوقهن .

اصبحت احب درس الرياضة وامهر في اداء تمارينه، كما احببت درس الرسم، حرصت الثانوية على ان تكون دروس الرسم في قاعة المرسم، كل طالبة ترسم على حامل اللوحة وتتقن ما رسمت لتجد انها ماهرة في كل الدروس التي تزيد النفس متعة ومهارة، وجدت نفسي احب درس التدبير المنزلي، وكان اعداد اصناف الطعام من الدروس التي احبها ، تعلمت كيف ابرع في اعداد كثير من الاطعمة ، الدولمة والبرياني وانواع المرق والسلطات والشوربة وكيف اجهز المائدة واهتم بمكان الملاعق والشوك والسكاكين، لم اشعر انني وحدي وان كل الانظار تتوجه لي مفتشة عن عيوب خلقية منذ مولدي او اخطاء اقع فيها عن غير قصد مني، كثر عدد الصديقات، وكل واحدة منهن تشاركني اهتماماتي، نفرح في درس الرياضة في الصيف نذهب الى القاعة الصيفية وفي الشتاء وسقوط الامطار نجد ان القاعة الشتوية خير صديق لنا ينقذنا من حرماننا من الدرس الحبيب، انضممت الى

صديقات المكتبة المدرسية التي امتلأت بروائع الكتب بكل فروع المعرفة، اذهب في الفرص لإعانة الطالبات الباحثات عن كتاب معين، اساعدهن على العثور على الكتاب واستعارته، الست خولة كانت مسؤولة عن المكتبة، اتحدث معها في كل الامور التي تعاني منها المرأة في بلادنا، قالت ذات يوم:

- خصصت المكتبة جائزة للطالبة التي تقرأ كثيرا!
- وكيف؟
- المكتبة تسجل اسماء من يستعير الكتب، في نهاية كل فصل دراسي اقوم بتعداد اسماء المستعيرات للكتب لمعرفة اكثر الطالبات قراءة!
- وكيف تعرفون ان الكتب المستعارة قد قرأت فعلا؟
- ألم توجهكن مدرسة العربية على ان تسجلن عنوان الكتاب واسم المؤلف والغاية من التأليف في دفتر تحتفظن به؟و تسجلن رأيكن في الكتاب الذي قمتن بقراءته، ولماذا نال الاعجاب؟ وما هي اسباب نفوركن من افكاره وطريقة معالجة الأفكار، وأحيانا نستعير الكتاب ونقرأ ولا نكمل القراءة، وعلى المستعيرة ان تبين كل هذه الامور، هل عندك دفتر تسجلين فيه ما تقومين بقراءته؟
- بلى، وجهتنا استاذة اللغة العربية لما تقولين، وعندي هذا الدفتر!
- قد تفوزين بجائزتنا هذا العام!
- أتمنى ذلك!

في نهاية الفصل جئت للست خولة:

- هيا قومي بتعداد اعداد الطالبات المستعيرات للكتب!
- قمت بهذا الامر قبل ان ان ينتهي الدرس وتأتي الفرصة!
- ماذا وجدت؟
- الطالبة سميرة اكثر القارئات في عدد الكتب المستعارة!
- وأين جائزتي؟
- ستقوم المديرة بإلقاء كلمة بالمناسبة وتثني على اجتهادك واقبالك على قراءة الكتب الخارجية!
- متى؟
- في احتفالات تحية العلم نهاية الاسبوع الحالي!
- والجائزة؟
- الثناء الذي تتلقينه من المديرة والمدرسات وصديقاتك اعظم انواع الجوائز! نحن مدرسة فقيرة ليس باستطاعتنا ان نقدم لك الا الثناء!

أفرح كثيرا حين ينفذون ما وعدوني به، تحتفل المدرسة بي وتكرمني و وتمدحني المديرة بكلماتها الجميلة اللطيفة، وتقوم الطالبات والمدرسات بالتهنئة التي غمرتني بالبهجة!

(٤٩)

نجحت سميرة في امتحان الثانوية العامة، وأرادت ان تسجل في كلية الآداب قسم اللغة الانجليزية، قال لها أبوها:

- سجلي في كلية البنات، انت تريدين التخصص في اللغة الانجليزية وفي كلية البنات توجد هذه اللغة!

- لكني اريد الدراسة في كلية الآداب، بقيت احلم بهذه الكلية طوال عمري!

- لا فرق يا ابنتي، اللغة الانجليزية في الكليتين!

- في كلية الآداب تكون الدراسة اقوى من بقية الكليات!

- في كلية الآداب يوجد اختلاط بين الجنسين، ونحن محافظون! اين استمارة التقديم للكليات، هاتها كي اوقع عليها!

- لم أملأ الاستمارة بعد!

- سوف املأها انا، اضع كلية البنات في مقدمة الكليات، ومعدل درجاتك الذي حصلت عليه في امتحان البكالوريا للثانوية يؤهلك للقبول في اي كلية ادبية تريدينها، يملآ الأب الاستمارة:

- هاك وضعت كلية البنات في طليعة الكليات!

- انا افضل الآداب يا ابي، الدراسة فيها اقوى!

- انا مثلك يا ابنتي، افضل ما تريدينه انت! لكننا اسرة محافظة، ومن الخير لنا ان تكمل ابتنا دراستها في كلية خاصة للبنات، وان لم يحصل هذا لن تواصلي دراستك!

تتصل سميرة بالمديرة الحنونة وتخبرها برغبتها بالتسجيل في

كلية الآداب، لكن الوالد يرفض بسبب انهم من اسرة محافظة!

- هاتي ملفك وتعالي الى الثانوية، سأكون انا هناك، وأساعدك في تقديم ملفك الى الجهات المسؤولة!

تنفذ سميرة نصيحة المديرة، تذهب الى الثانوية وبيدها الملف الذي وقع الوالد على الاستمارة المقدمة للمسؤولين، تقرأ المديرة ما كتب في الاستمارة، تشطب كلية البنات من الاختيار الأول وتكتب بدلا عنه كلية الآداب وتوقع على التغيير، وتعطي لسميرة رسالة الى المسؤول الذي يستلم الملفات ويقدمها الى من ينظر في اختيار الطلاب ليتم تحديد الكلية حسب الرغبة والمعدل ..

- خذي سيارة اجرة لتوصلك قبل انتهاء الدوام، اليوم في الساعة الواحدة ظهرا تنتهي مدة التقديم للدراسة الى الكليات!

تسارع سميرة الى سيارة الأجرة، تجد الازدحام شديدا، يقلقها الانتظار، وتخشى ان تنتهي مدة التقديم ولا يقبل ملفها في الدراسة الجامعية .. حين تصل في الساعة الحادية عشرة والنصف، يقول لها الواقف بالباب:

- انتهى وقت التقديم!
- ما زالت هناك ساعة ونصف الساعة .
- لست مسؤولا هنا، اذهبي الى مدير التربية!

تطلب سميرة السماح لها لرؤية مدير التربية، تخبره ان فترة التقديم للدراسة الجامعية لم تنتهي بعد، يراجع المدير التعليمات، ويقول:

- معك حق، اذهبي الآن الى غرفة التقديم وقدمي لهم ملفك!

(٥٠)

في الجامعة أعيش اسعد الأوقات، أتعرف الى مجموعات من الطلاب، تجد في الجامعة حياة جديدة وليس دروسا تقرأ في كتاب او تسمع من استاذ، الاشخاص الذين تعرفت عليهم يريدون ان تكون السنوات الأربع حياة من اجمل سني العمر، ينهلون من المعارف التي تقدمها الكتب العديدة، التي نستعيرها من مكتبة الكلية، او نقوم باستعارتها من الطلاب، كل طالب منا ليس له القدرة عل شراء كل الكتب التي يقرأها احدنا ويرغب الآخرون في الاطلاع عليها، يقوم من لم يستطع ان يشتري الكتاب، باستعارته من صاحبه، كل يوم يقرأ احدنا الكتاب وفي نهاية الشهر يكون القارئون ثلاثين، وزادت المجموعات التي تعرفت عليها، من كل كلية يأتي الى الآداب الطلاب المحبون للقراءة والاستماع الى القصائد الشعرية او الاطلاع على القصص القصيرة التي يبرع كتابها في التعبير عن هموم الناس ومشاغلهم، تعرفت الى اصدقاء جدد اعتز بصداقاتهم ذكورا واناثا، احببت الحياة الجامعية، استيقظ مبكرة واستقل ثلاثة سيارات لأكون في الكلية قبل ان تحل الساعة الثامنة بنصف ساعة على الأقل، انهل من المعارف واستمع الى القصص واتمتع بالقصائد التي يلقيها ناظموها في المهرجانات الشعرية، اقرا الكثير من القصائد بالإضافة الى تمتعي بالاستماع الى عشرات الشعراء وهم يلقون قصائدهم بأصوات معبرة عن المعاني الكثيرة التي يرغبون

بتوصيلها الى المتلقي، لا احب ان ينتهي وقت الدوام، واظل حتى وقت متأخر، فالبيت لم يعد يسعدني، تعززت صداقتي بالطالبة البصيرة شذى، اسعدت بصحبتها والاستماع الى صوتها وهي تغني لفيروز وام كلثوم، اذهب في الصباح الباكر الى قسمها الداخلي واصطحب الصديقة شذى الى الكلية، نقضي النهار كله بين الدروس في القاعات وفي وقت ما بين الدروس نذهب الى نادي الكلية لننعم بالصحبة الجميلة ونشرب قدحا من الشاي او الكاكاو، حين تنتهي الدروس ويحل وقت الانصراف اصحب الصديقة ذات الصوت الرخيم الى قسمها الداخلي ثم اواصل عودتي الى البيت، نادرا ما احضر الحفلات التي يقيمها قسم اللغة الانجليزية، لأنها تبدأ في الخامسة مساء وتنتهي في وقت متأخر، لا استطيع معه الحضور، احتفال واحد استطعت حضوره حين شاركتني فرحتي صديقتي ظمياء بقيت معها متمتعتين بالحفل حتى نهايته، فعدنا معا الى بيتنا وبقينا ساهرتين نتحدث باروع القصص والحكايات وتقرأ كل واحدة منا في فصل من رواية لإحسان عبد القدوس بصوت عال لتسمعه رفيقتها، وحين وصلنا الى نهاية الرواية كان الصباح قد اوشك على الانبثاق ..

تهيأت قريبتي ظمياء للذهاب الى كليتها العلوم وتهيأت انا للذهاب الى كليتي الآداب وشربت رفيقتي الشاي مع تناولها شريحة من الجبن، وشربت انا كأسا من الحليب، وغادرنا المنزل الى باب المعظم ثم يممت كل واحدة منا الجهة التي تريدها .

لم يؤثر سهري وانهماكي بالحديث مع قريبتي ظمياء وقراءتنا

لرواية كاملة لإحسان عبد القدوس على برنامجي اليومي في الكلية، اسرعت الى القسم الداخلي للجامعة وصحبت صديقتي شذى الى الكلية وبدأنا التمتع بصوتها الجميل وهي تغني لفيروز وانا استمع باعجاب .... نحضر المحاضرات وننهل من المعارف التي يقدمها لنا الأساتذة، وحين تنتهي الدروس اعيد صديقتي الى القسم الداخلي واواصل العودة الى منزلي.

(٥١)

ضايق اصدقاء الأستاذ صادق والد سميرة التاجر في الشورجة، واتفقوا مع جماعة الاسلام السياسي على محاربته في الشغل، والعمل على جعل الناس يبتعدون عن شراء البضاعة الجيدة التي كانوا يقبلون على شرائها قبل ان يستفحل امرهم ويتهمونه بالكفر والمروق، والد سميرة الذي كان التجار يصفونه بانه الرجل الرجل الذي ما ان يوقع به الأعداء، حتى ينهض من جديد، مصمما الا يدع مجالا لأحد ان ينتصر عليه، ولكن مرض والد سميرة وتعاون اعدائه ورغبتهم في محاربته في عمله وتجارته، جعل الأعداء الكثيرون يحققون مرامهم، فقد كان معروفا للناس بالأمانة وحسن المعاملة، وعدم الرغبة في الربح الفاحش على حساب الناس، نجح الأعداء في الايقاع بالإنسان الذي كان الاعداء يرونه كافرا، لأنه يسعى الى اسعاد الناس، ما ان يرونه يربح ويحقق النجاح في عمله، حتى يخططون ليلقى القبض عليه بين فترة وأخرى، بحيث لا يستطيع معها تحقيق النجاح الذي يصبو

اليه، فخسرت تجارته، وفي اخر اعتقال كان يحتفل مع اصدقائه بمناسبة ذكرى ثورة تموز فجاؤوا اليه قائلين:

- كيف تحتفل بذكرى انقلاب عسكري يراه الاسلام خروجا على الدين؟

اعتقل لهذا السبب البسيط، فلم يستطع ان يسدد اثمان المواد الكهربائية التي كان يشتريها بالجملة، فصدر قرار بمصادرة املاكه المنقولة وغير المنقولة، منزله كان بالإيجار، فتم وضع اليد على اثاث منزله، فنهبت الثلاجة والتلفزيون وغسالة الملابس وغرفة نوم والدة سميرة، ومكتبة سميرة وسرير نومها، واسرة الاشقاء والشقيقات، ولم يسلم اي شيء في منزل والد سميرة الذي اودع المعتقل بتهمة انه عضو في جماعة تدعو الى تغيير الأوضاع والمجيء بنظام حكم مختلف، يعيد السماح للجماعات الفوضوية، قرر مجلس العائلة ان يذهب كل اربعة اشخاص الى منزل احد الأقرباء الى ان تنتهي الدراسة وتحل العطلة الصيفية، فيجتمع كل افراد الاسرة البالغ عددهم احد عشر فردا، في بيت الجد في مدينة الكوت، تم الاتفاق ان تذهب سميرة وامها واختها الى بيت قريبهم الذي كثيرا ما استقبلته الاسرة بترحاب، ومنحته غرفة سميرة قبل ان يستتب الامر لهم ليحكموا البلاد الغنية، ويستبيحوا ثروتها ويفقروا شعبها ...

سميرة المجتهدة في السنة الرابعة جامعة تغيرت حياتها ولم تستطع ان تواصل الاجتهاد في المنزل الغريب:

- لا تفتحي الكهرباء كثيرا، لا يمكن ان تستهلكي

الكهرباء وحدك!

- وماذا افعل يا خالي؟

- اقرئي الكتب المقررة عليك فقط، لماذا تقرئين كثيرا ، ما ن استيقظ في الليل وارى النور ينبعث من الغرفة التي انت فيها ، حتى يستبد بي القلق، كيف يمكنني تحمل وجودك في منزلنا وانت قد ورثت العناد من ابيك المعتقل لمروقه وعدم احترامه الواقع!

- ابي ليس مارقا!

- وتجادلينني ايضا؟! ألست مثل ابيك الذي كان يدللك حتى افسدك!

تسمع سميرة امها وهي تعترض:

- سميرة من احسن البنات وأفضلهن خلقا واجتهادا!

- انت ساهمت في تدليلها وافسادها ، نحن هنا لانبذر في الطعام واستعمال الكهرباء كما كنتم في منزلكم!

(٥٢)

ما بين فترة واخرى يرغمونك ان تبتعد عنا ، فتتغير حياتنا وتسوء حالنا ، كل شيء ينقلب، يأتي المسلحون ويأخذونك من محل العمل، يستبيحون اموالك ويويعملون على خسران تجارتك، بعد كل ابتعاد يطلقون سراحك، لأنهم لا يجدون ما يستوجب الاعتقال، نهنأ بوجودك معنا ونطمئن بقربك منا ، ولكن ما ان تجعل الفرحة قريبة الينا ، حتى يجدون سببا آخر ليعتقلوك من جديد ، ونفس السبب يتكرر كل مرة ، انك عضو في جماعة

تخطط لانقلاب، يضع حدا لحكمهم ويودي بتسلطهم، جاء عدد من الأشخاص في غيابك الى منزلنا، وقالوا انك مدين بمبلغ كبير، ويريدون ان يأخذوا اثاثنا، كل ما عندنا في البيت اخذوه، حتى غرفتي الصغيرة لم تسلم من المصادرة، وضعوا يدهم عليها، سريري الصغير وخزانة الملابس والمكتب الذي اكتب عليه، والمكتبة الصغيرة التي احفظ فيها ما املكه من كتب ودواوين شعر، لم يبق معنا احد بعد ان فارقتنا، اجتمع مجلس العائلة وقرر ان يذهب كل اربعة افراد من منزلنا الى بيت الخال او العم او العمة، ليبقوا اقل من شهرين حتى تهل العطلة الصيفية، فيجتمع جميع افراد اسرتنا في بيت الجد في الكوت ..

انا وامي واختي سهام صرنا من نصيب الخال، الذي كثيرا ما اعتبرناه فردا من اسرتنا، منحناه غرفتي الصغيرة، ليستظل فيها، تغيرت حياتي وانقلب حالي ووجدت كل شيء صعبا، لم استطع ان اقرأ كتابا واحدا، ما ان امسك احد الكتب التي استعرتها حتى يسرع الي الخال:

- ماذا بيدك؟
- احد مؤلفات سارتر!
- وهل هذا الكتاب مقرر عليك؟
- لا..
- لماذا تقرئينه اذن؟
- ادرس الانجليزية وبعد فترة قليلة اتخرج متخصصة فيها، كيف لا أقرأ سارتر في الانجليزية؟

- هـذا لـيس شـأني! امنعـك ان تقرئـي شـكسـبير بالإنجليزيـة ايضا ..

- وماذا يجب ان أقرأ؟

- الكتب المقررة عليك فقط؟

- لكني في الجامعة الآن ولست في الثانوية!

- هذا ليس شأني!

- ان لم اقرا الكتب بالإنجليزية لا تكون درجاتي جيدة!

- وما شأني أنا؟ المهم ان تصلي الى درجة النجاح فقط! وياليتك ترسبين هذا العام!

- درجة النجاح ليست غايتي! ولن ارسب لأن درجاتي في السنة الثالثة جامعة كانت ممتازة!

- اسمعـي يـا انـت! لـيس مـن حقـك ان تسـهري كـل ليلـة والكهرباء تصرف وانت تبذرين!

- لا استطيع ان اقرأ كل ما يلزم في النهار!

- ليس هذا من شأني! لماذا اكون حريصا على نجاحك؟ وما الذي اكسبه من هذا النجاح؟

- سوف اعمل على تقليص عدد الكتب التي اقوم بقراءتها!

- ليس من حقك ان تضيفي كتابا واحدا الى الكتب المقررة عليك!

- حتى في النهار يكون الضوء غير كاف!

- تعـودي علـى طريقتنـا! لا نحـب التبـذير، لسـنا مـثلكم، لـو كنتم مقتصدين لما صرتم عالة علينا!

(٥٣)

اعيش حالة صعبة جدا ، لم ار مثلها ، مع اني شهدت الكثير من الصعاب واستطعت اجتيازها ، لا استطيع الخروج من المنزل الا للذهاب الى الجامعة ، وان تأخرت لسبب من الأسباب ، مثل ازدحام في الطرق ادى الى تأخر في العودة خمس دقائق ، اجد الخال وقد اكفهر وجهه وازبد وأرعد :

- اين كنت؟
- في الكلية؟
- وكم الساعة الآن؟
- الثانية وعشرون دقيقة!
- ومتى خرجت من الكلية؟
- في الثانية ...
- والوقت يستغرق عشر دقائق فقط! كان يجب ان تكوني هنا قبل عشر دقائق!
- الطرق مزدحمة!
- وانا مثلك اخرج في الثانية واصل بعد عشر دقائق ، والطرق نفسها!
- انت لديك سيارتك!
- وهل تريدين ان اعطيك سيارتي؟
- لا اقصد هذا ، انما الذي يستقل سيارة خاصة يصل قبل راكب الحافلة ..

- لا اعرف ماذا تريدين؟ بعد نهاية الدوام بعشر دقائق عليك ان تكوني في المنزل، الحافلات متوفرة بكثرة في بغداد!

صمت ولم اجب خالي على اتهاماته المبطنة، رغبة ان اتمكن من حضور الاحتفال الذي اقامه الادباء لعدد من الشعراء العراقيين في كلية التربية والذي ينعقد بعد اسبوع، قبل اليوم المحدد، اخبرت الخال:

- هناك احتفال شعري في كليتنا لعدد من الشعراء احب ان احضره!
- متى الاحتفال؟
- غدا.
- ومتى يبدأ؟
- الساعة السابعة ..
- ومتى تكونين في المنزل؟
- الساعة العاشرة ..
- حسن، في العاشرة انت هنا!

حضرت الاحتفال وقبل ان يأزف الوقت الذي اتفقت مع خالي ان أعود فيه، هيأت نفسي لمغادرة المكان، اعرف ان المسافة بين الكلية ومنزل خالي يمكن ان يقطعها المرء في عشر دقائق مشيا على الأقدام، طلبت من زميل الدراسة احمد ان يوصلني، وافق، ولكنه وبعد ان اخبر اصدقاءه انه سوف يغادر الاحتفال قبل ان ينتهي بساعتين، تأخر عن المغادرة عشر دقائق، مما ادى تأخري في الوصول الى المنزل عشر دقائق، وجدت باب المنزل مغلقا والخال

جالس يسمع صوت رن الجرس وامي قربه ترجوه ان يوافق على فتح الباب:

- كم الساعة الآن؟
- العاشرة وعشر دقائق!
- وكم اتفقنا ان يكون وقت عودتك؟
- العاشرة!
- لماذا تأخرت عشر دقائق؟

المناقشة احتدت والباب مغلق، بعد ان قال ما يريحه فتح الباب!

- تعبت منك! سوف اعمل على ان تبتعدي من منزلي، عندك عم وعمة يمكنهما ان يسمحا بإيوائك!

(٥٤)

ام سميرة في بيت ابيها، أبوها عاجز عن اتخاذ اي موقف يفهم منه انه يقف بجانب ابنته حين تتعرض للاعتداء من قوى لا يستطيع هو رب الدار ان يضع لظلمها حدا، قال الأستاذ صادق لام سميرة:

- حين كنت قي منزلكم لأن كليتي في بغداد لم تحترموا وضعي!
- لكننا قدرناك واعتبرناك احد افرد الأسرة!
- وسمحت لابنتكم الصغيرة ن تناقشني في امور لا يمكنني السماح بمناقشتها من الكبار، فكيف اسمح للصغار ان يجادلوني؟
- لكننا اكرمناك

- لست مستعدا لرد اكرامكم لي، لست ضعيفا مثلكم وسوف اريكم من أكون أنا؟ ومن تكونون انتم!

- لكنني أختك!
- ولم تقفي معي حينما اردنا تأديب سميرة وأبيها!
- وهل كنت تريد ان اقف ضد ابنتي وأبيها؟
- لا أدري! لست مستعدا لتبقوا في منزلي طوال الوقت!
- نحن في منزلك بصورة مؤقتة، سنعود الى بيتنا حين يطلق سراح زوجي، فهو بريء مما يتهم به!
- سوف تبقين هكذا يامن تدعين انك اخت لي!
- وهل تنكر انني ابنه ابيك؟
- سأجعل من تدعين انه ابوك يقوم بإنكارك! ما رأيك؟
- ماذا ستفعل؟
- سيقوم أبوك بطردك وابنتك سميرة واختها من منزلي!
- لا اظن نه يقعل ما تريد منه! انه ابي وهذا بيته!
- ابوك الذي لاحول له ولا قوة، لن يستطيع ان يتمرد على اوامري!
- سوف لن اخرج من منزل ابي!
- سوف نرى ما يمكنك القيام به! ابوك لن يعصي امري!
- وبماذا امرته؟
- ان يخرجك من هذا البيت! لا اطيق رؤيتك هنا، انت زوجة الرجل المارق الذي خرج على تعاليمنا!
- زوجي بريء..... لم يقم بما تتهمونه به!

- زوجك ليس بريئا وابنتك مذنبة وانت ظالمة لنفسك! لأنك وقفت مع الأعداء ضد من تدعين انه اخوك!
- انت اخي يا صادق!
- الأستاذ صادق والذي سوف يصبح دكتورا بعد عام!
- وكيف اناديك؟
- الدكتور صادق!
- لكنك اخي وانت تصغرني بالعمر!
- سأخرجك من هذا المنزل وأتبرأ منك . وارى كيف يمكنك ان تدعي بعد ان يطردك ابوك من هذا البيت انك اخت لي!

- لكني اشعر انك اخي رغم ما تفعله!
- لم تري ما يمكن ان افعله بعد، سأريك ما عاقبة عصيان اوامري!

(٥٥)

لم اكن ادري ان شخصا يمكن ان يحمل في قلبه كل هذا الكره، لأشخاص احبوه رغم اختلافهم معه في الآراء والمعتقدات، وانهم قاموا بإيوائه في منزلهم الصغير، من اجل ان يجد الراحة ضيفهم القريب البعيد، سكن منزلهم مرتين، المرة الأولى عام ١٩٥٩ وبقي الضيف العام كله ثم اخذ يزورهم بكثرة في الاعوام الباقية وحينما تجرأ الانقلابيون على قتل كل من لا يتفق مع أفكارهم، غاب الضيف ايام القسوة المتناهية والغدر اللامحدود، ومر بأخته مهاجما حين اعتقل زوجها وابنتها، عاد الضيف مع اخيه

الأصغر منه الى بيت اقاربه بعد ان انقلب على الانقلابيين من وضعوا ثقتهم به وجعلوه رئيسا على البلاد يأمر وينهى العباد، بعد تسعة شهور عاد الضيف واخوه الى منزلنا، لم نذكره ما فعل معنا وكيف انه لم يسأل عنا ولم يقم بمساعدتنا حين اصبح مسؤولا كبيرا، رحبنا به، قلت لك:

- لماذا نستقبله في منزلنا وقد اساء الينا كثيرا؟

- لأننا لسنا مثله يا ابنتي! ان اساء الينا شخص فليس من المروءة ان نعامله بالمثل!

- كان مسؤولا كبيرا ولم ينصفنا!

- ولم نملك منصبا كبيرا، كما امتلك قريبنا،ولكننا سوف ننصف كل انسان حسب استطاعتنا!

- وهل نحن اقوياء لهذه الدرجة؟ أن نحسن لمن أساء الينا؟

- لا نملك القوة الكبيرة، لكننا نتصف بالشهامة يا ابنتي!

- وهل ننسى كل الاساءات؟

- لا ننسى، ولكن لا نكون حاقدين كارهين للناس!

- والعقاب والثواب؟

- المجرم يجب ان يعاقب بالقانون، لسنا من يعاقب! اما أقرباؤنا فقد قاموا بالإساءة لنا قليلا، مررنا بوقت صعب ثم استطعنا ان نجتازه!

اتذكر اقوالك وانا استمع لما يقوله خالي، عمل ما لم يستطع ان يقوم به الاعداء من بسبب اختلاف بالرأي، ولم نسيء له ابدا ورحبنا بسكنه في بيتنا، وقدمنا ما يمكننا لإكرامه، وكان

يطلب من امي ان تتنكر لابنتها وزوجها من اجله، وهل يمكن للأم ان تنسى ابنتها من اجل شخص آخر؟ حتى لو كان اخوها؟ لم اشعر بالضيم لكلمات خالي، فقد اسمعني الكثير منها، ولم يدعني ادرس كما اريد للحصول على درجات تؤهلني للدراسات العليا، امي حزنت قليلا لما سمعته من اخيها الذي لم بكن طيبا معها ابدا، وانت كنت كريما وفي منتهى الكرم مع انسانة حبيبة حين استقبلت اخا علينا ان نكرمه مهما فعل لنا، وان الانسان النبيل لا يمكن ان يقدم على فعل العمل السيء مهما كان....

ليقم خالي بما يريد، بقي للسنة الدراسية ايام قليلة، والامتحانات قريبة، وانا اسعى لإكمال دراستي، فالكلية ليست مبتغاي لوحدها، احب ان اتزود بالمعرفة وان انهل من بحارها طوال العمر!

(٥٦)

ذهب والد ام سميرة الى والد ابي سميرة وبعد ان استراح من وعثاء السفر قال:

- تعال الى بيت ابني وخذ كنتك من هناك، فلا نرغب بها بعد اليوم!

- لماذا؟ اعرف ان كنتي انسانة خلوقة وهادئة الطباع، فهل فعلت ما يثير نقمتك؟

- لم تعمل لي سوءا ولكن ابني الدكتور امرني ان اخرجها من المنزل!

- ألم تستطع ان تعدل بينهما، ولقد سبق وأن علمت انك

تسعى لإرضاء اللّه!

- لا خيار لي، كل شيء قد تغير، وها ان ولدي كبر واشتد عوده وتجبر!

- كان اللّه بعون كل انسان تعب على تربية ابنه فلما شب تمرد عليه ولم يقدر شيخوخته وكبر سنه!

- انت محظوظ لك في اولادك منزلة وتقدير! انا لم يعترف احد بتعبي من اجله!

- أشفق عليك ايها الشيخ!

- ماذا قلت بشأن طلبي الذي أتيتك من أجله؟

- ام سميرة هي ابنتي عزيزة علي، اعرفها منذ عشرين عاما وحسبتها احدى بناتي، وسوف ازوركم لأعود معها الى منزل يرحب بها دوما، مثلما استطعت ان اخرج حفيدتي من براثن أقربائها، سوف انقذ امها من مكان لا يرحب بها ...

- متى تأتي لإخراجها؟

- اعرف ان سميرة في السنة الرابعة كليه، هل ان ولدك لا يرغب بوجود سميرة ايضا في بيته؟ أم ان عدم ارتياحه يقتصر على امها فقط؟

- سميرة وامها واختها يشكلن عبئا علينا لا طاقة لنا بتحمله، انت قد فضل اللّه عليك تستطيع ان تأوي الجميع في بيتك وتطعمهم ألذ الطعام، لكنني عاجز عن ايواء احد بعد ان نفذت نصيحة ابني في التقاعد عن عملي في التجارة!

- كنت تاجرا كبيرا ولك سمعتك، كيف استطعت ان تترك

كل نجاحاتك وتتنكر لأعمالك التي درت عليك ثروة ضخمة!

- شاء ولدي ان اترك كل اعمالي لأتقاعد عن عمل كان يتعبني كما يرى!
- وهل كان عملك في التجارة يتعبك حقا؟
- كان سلواي وفرحي والدواء الذي ينقذني من تنكر الزمن!
- جرب ان تنتصر لنفسك ايها الشيخ، فقد ساءني حالك!
- احاول ان اتكيف مع الوضع الجديد الذي يتلاءم مع مركز ابني السياسي!
- واي مركز هذا الذي يعادي التجارة؟ وقد استطعت بعملك ان تملك الدور والحوانيت في الكوفة والنجف؟
- بعضها باعها ابني وبعضها الآخر وهبته لأمه!
- وام سميرة لم تبق لها شيئا؟
- عندها زوج سوف يخرج من المعتقل قريبا!
- وهل ما قمت به يمثل شرع الله يا شيخ؟
- الله يعرف بحالي ولا يكلف نفسا الا وسعها!
- ونعم بالله! سوف اتي لزيارتكم غدا واعود الى هنا مع ام سميرة ..
- وسميرة وأختها؟
- تكملان دراستهما هذا العام وبعد الانتهاء من الدراسة تعودان الى منزلهما .
- تعني منزلك؟
- هما حفيدتاي وهذا منزلهما!

(٥٧)

تتهيئين كل يوم، ترتدين قميص النوم الزاهي يبدو نهداك متوثبين، يسعيان الى ان يشعرا انك امرأة ككل نساء الأرض، يحيطك بذراعيه ويلثمك كما تحبين وتشتهين، تضعين العطور الغالية، بعثها اخوك الهارب الى باريس، تراودك الاحلام كل ليلة، يأتيك اخر الليل وقد اودى الشراب بكل عقله، تقولين لنفسك:

- لابأس، عله يفيق في الغد ويشعر بك!

تتراكم عليك الأوجاع، تفكرين لماذا اختارك دون النساء؟ هل لينتقم منك؟ أمن اجل ان يعفر أنوثتك في التراب؟ انت الانسانة الجميلة والذكية المثقفة والتي احرزت اعلى الشهادات الجامعية، وتعينت في احسن المراكز العلمية، وكنت تحلمين ان تفوزي بمن احبه القلب وارتضى به الوجدان ان يكون زوجا لك، ولكن هيهات، بعد ان رحل ابوك متأثرا بجراح القلب لم يبق لك احد في هذا العالم! انت الجميلة المرهفة الاحساس، عطفت عليك عمتك ام المسؤول الحزبي واختارتك عروسا لولدها شقيق المسؤول:

- انت لست عراقية ابعد اهلك الى الحدود وادخل اخوتك الى السجن، انا عمتك الحنون اخطبك لابني الثاني ..

- ابنك لم يكمل تعليمه ولم يجد له عملا مناسبا!

- وما الضير في هذا، انت اكملت تعليمك فلتتعاونا معا!

- والعمل؟ ابراهيم ليس له عمل!

- انت تعملين واخوه مسؤول كبير!

- ولماذا لا يبحث له اخوه عن عمل مناسب؟

- اختار له الكثير من الأعمال، لم يصبر ابراهيم عليها، قد يتغير بعد الزواج! من يدري؟ كثير من الناس تغيروا بعد زواجهم، ولكن ما السوء في هذا؟ انت تعملين وتنادين بالمساواة! الا يكفي راتبك لكليكما؟

تطول ليلتك ككل الليالي، تجدين العلقم في ايامك المتعبة ولياليك المسهدة، فمن يمكنه ان يستمع الى شكواك؟ وهم المتعمون المهيمنون على مقاليد الأمور؟

ما زالت الأحلام تداعب نفسك الظمأى الى حضن رجل، تشعرين معه انك انثى، ولكن آمالك الكبيرة تتبخر كما تتبخر كل ليلة رغبتك في الحب وانت المحرومة من كل شيء!

تقول لك عمتك:

- انا امك وابوك واخوتك وأخواتك، ،رغم ان اخواتك معاديات لنا!

- لم يعادكم احد منا!

- ولماذا هربت الاخوات واودع الأخوة الى السجون؟

تصيبك الحيرة ويستبد بك القلق، ماذا يمكنك ان تجيبي واتهامات عمتك تقع كالسياط عليك كل يوم؟ تهاجم اباك وهو اخوها، فماذا يمكن ان تفعلي وانت وحيدة مع اشخاص لا يحلو لهم الا مهاجمة من تحبين؟

تنقضي ليلتك كسابقاتها، لماذا لا يغادرك الحلم اللعين؟ هل بمقدورك ان تكوني انثى في ليلة واحدة من لياليك المفعمة

بالعذاب؟

يصل ابراهيم الى غرفتك، يضع رأسه على وسادتك و يتعالى شخيره وانت في سعيرك تحترقين! فالي متى تستمر المعاناة؟ وهل يمكنك ان تضاعفي صبرك وقدرتك عليه محدودة؟ لماذا انت تشتد قسوتهم معك؟ تحاولين ان تبذري بعض الهدوء في نفسك المتعبة! سميرة صديقتك الوحيدة لم تسلم منهم وقد اثخنوا اسرتها بالجراح ....

(٥٨)

نخرج من بيت جدي، ونذهب الى بيت جدي الثاني، وانت بعيد عنا، تغيرت المعاملة قليلا، لم نجد الكره سافرا كما وجدناه في بيت الخال المسؤول، استقبلونا بتساؤل:

- متى يعود ابوكم؟
- ادعوا له بالعودة عما قريب!
- في كل صلاة ندعو الله عسى ان يستجيب للدعاء!

عددكم كبير تنتظرون الغائب العزيز، طالت رحلته المفروضة عليه، لا اعرف متى يعود، اشعر بالغربة في كل مكان اذهب اليه ولا اجدك هناك، ترى كيف انت؟ وكيف تجري معك الأيام؟ وهل يفرطون في تعذيبك؟ في اعتقالك الأول اخبرتني انهم بالغوا في تعذيبك، وانهم عصبوا عينيك وضربوك على اجزاء من جسدك، وأسالوا دمك الزكي طلبوا ان تعترف على أصدقائك وانت عازم على عدم الاستجابة لما يطلبون! انت المصاب بقرحة

المعدة، أناموك على الأرض، واخذوا يقفزون على بطنك حتى تقرحت جروحك، حين اخرجوك من المعتقل اثار شكلك استغرابنا، لقد فقدت الكثير من وزنك، سبعة عشر كيلو غراما، مما عرض صحتك للخطر، بقيت تستعين بالحبوب كي تحفظ لك ما ابقوه من الصحة، والابتسامة لا تفارق ثغرك، علمتنا الا نفقد الثقة بأنفسنا، وانه مهما طال الظلام، فلا بد ان نضاعف جهودنا كي يكون الغد أفضل، هنا لا احد مثلك، كلهم عابسون غاضبون وكأن عمرهم قد سلب منهم، الا الجد فهو انسان مختلف، وجدت عنده الراحة التي افتقدتها في بيت الخال، لم يحاسبني على استعمالي للكهرباء، بل منحني غرفة خاصة بي، ليس فيها مكتبة كتلك التي منحتني اياها في منزلنا السعيد، اشتريت مذياعا صغيرا، لاستمع بواسطته الى اعذب الألحان، في الخميس اقضي الليلة مع السيدة ام كلثوم، وفي السبت تكون سهرتي مع الصوت الجميل لفيروز، وفي احدى الليالي اقضي ليلتي مع فريد الأطرش، وليلتي الرابعة اقضيها مع محمد عبد الوهاب، اقضي النهار في اشغال المطبخ، وأهيئ طعام الغداء، واملك الوقت الكبير لأقوم بتنظيف المنزل مشاركة مع بنات عمي وبعد صلاة المغرب اقوم بإعداد طعام العشاء، وما ان انتهي من اشغال المنزل الكبير حتى اهرع الى غرفتي وبيدي الحبيب المذياع، فاستمع الى الغناء الجميل واسجله بدفتر صغير كي يساعدني على الحفظ، فحفظت كل الأغاني التي تعجبني، وكنت اغنيها بصوت لايمكن لأحد ان يسمعه، لكني احن الى

ايامك، احلم انك معي، تذلل لي الصعاب وتعينني على تخفيف العراقيل التي تقف في الطريق، أرى الجميع بعيدين عني، جدي الوحيد الذي يرأف بجميع من يعيش في منزله الكبير، :

- انتم ابناء الابن الأعزاء على القلب، بكم تفرح النفس ويسعد الفؤاد،

وجدت في مكتبة جدي ما اقرأ من كتب كثيرة، لكنها تختلف عن الكتب التي قرأتها في مكتبة المحامي الاستاذ ضياء، كما تختلف كتب جدي عن الكتب التي كنت استعيرها من المكتبات العامة او تلك التي استعرتها من الاصدقاء، مكتبة جدي فخمة فيها كل انواع الكتب، لكنه لم يمنحني سوى الكتب الدينية لأقوم بقراءتها ...

(٥٩)

أبلغت طالبات ثانوية الكوت للبنات سميرة، ان ثانويتهن قد انتقلت منها مدرسة اللغة الانجليزية، وانهن منذ فترة لا يحضرن درسا في اللغة، ويخشين ان تأتي امتحانات نهاية العام الدراسي ولم تكمل منهج الانجليزية، طلبت منها الطالبات ان تتقدم لوزارة التربية لملء مكان المدرسة المنتقلة، رحب مدير التربية بطلب سميرة وأثنى على رغبتها بالتدريس في ثانوية قد غابت عنها المدرسة المختصة:

- لا أملك لك الآن تعيينا في ملاك التدريس، ستقومين بإلقاء محاضرات في اللغة الانجليزية، ريثما يتم تعيينك مدرسة .

- كم من الوقت يجب ان احاضر حتى يتم تعييني مدرسة على الملاك الدائم؟

- عادة يتم تعيينك في مدينة بعيدة، وبعد عامين تطلبين نقلك الى مدينة سكنك ..

- لكن سكني الدائم ليس هنا!

- اين كنت تقيمين؟

- في بغداد ....

- جيد، سوف يتم تعيينك في بغداد في احدى المدارس الابتدائية كمعلمة جامعية! أليس هذا افضل لك؟ أم تفضلين العمل في ثانوية؟

- لا يهم، كل المدارس احبها، ارجو ان يكون عملي في بغداد ..

- من الغد تباشرين في القاء المحاضرات في ثانوية الكوت الى ان تعين وزارة التربية مدرسة جديدة للغة الانجليزية بدلا من تلك التي انتقلت ..

- وهل تحسب مدة عملي محاضرة اعواما للترفيع والتقاعد؟

- نعم، بكل تأكيد ...

تبدأ سميرة عملها في القاء المحاضرات، تقبل على محاضراتها الطالبات بشغف كبير، لقدرتها على تبسيط المادة وشرح ما غمض منها في القصة او القواعد، فأحبت الطالبات مادة اللغة الانجليزية وقمن بالتجويد فيها وكتابة الانشاء التعبيري بهذه اللغة التي كانت الطالبات يعتبرنها من الدروس العسيرة على الفهم

والاستيعاب، فقويت قدرة الطالبات في التحدث بهذه اللغة وقراءة القصص والروايات بها، بعد ان كن يجدنها صعبة جدا ..

اكتسبت سميرة صداقات عديدة مع اهل المدينة، فكثرت زيارات الاسر لمنزلها كما انها كانت ترد على زيارة الاسر لها بزيارتهم في منازلهم وتقديرهم واظهار التقدير لهم والاحترام ..

حنين سميرة لأبيها كان يتزايد، ابوها الذي كانت تحبه كثيرا وتعتبره معلمها الأول شعرت بحاجتها الماسة له، لم تستطع ان تراه بعد ان اعتقله الطغاة ولا تعرف ماذا حل به، بقيت مع اختها وامها في بيت جدها الذي رحب بوجودها في منزله وحاول ان ينسيها اشتياقها للأب الذي فارقته رغما عنها، واخواتها واخوتها استطاعت ان تراهم، فكانوا يأتون لزيارة جدهم في الأعياد والمناسبات، كما انها قامت بعدد من السفرات لبغداد لرؤية الاخوة والاخوات هناك، ظل الحنين يستبد بها، وكثيرا ما ساءلت نفسها:

- الى متى نبقى في امكنة عديدة وكنا مع الوالد اسرة واحدة؟

لم توجه سؤالها الى احد، فهي تدرك الاجابة، وتعرف ان الوالد لم يكن ليرضى عن وضع يزداد فيه السوء ويظلم فيه المرء اخاه!

(٦٠)

تغيرت حياتي في المدينة التي تكثر فيها البساتين، لشروق الشمس سحر لا يقاوم ولغروبها جمال بديع، استيقظ فجرا كل يوم سكان المنزل يفيقون فجرا لأداء الصلاة، استيقظ معهم لأمتع نفسي بمناظر خلابة لم اجدها في مكان آخر، الوقت طويل هنا، لا يجري الانسان كما يفعل في بغداد، بل ينظر الى الأشياء كلها بتمعن، تشرق الشمس بتمهل وتطل على العالم بمحبة، اشعتها حانية تبعث الدفء الى النفوس التي احزنها ان تجد نفسها بعيدة عن الأحباب، في داخلي شوق كبير لمعانقة المحبة التي ترسلها الشمس لأحبابها من البشر، اتناول فطوري وانا انظر من النافذة لأرى روعة الخلق، وانهل من ينابيع الجمال، حديقة غناء يغني فيها البلبل مرحبا بانبثاق يوم جديد، هنا قفص لطيور الحب، انظر اليها والعجب يسيطر علي لماذا لا يحيا الانسان محبا يحتفي بجلال الحب مثل هذه المخلوقات الصغيرة؟ التي حباها الله قدرة خارقة على التمتع بجمال الحياة وبهائها، رغم ان ايامها معدودة، اتهيأ للذهاب الى المدرسة كما يدل جدول حصص اللغة الانجليزية الذي زودتني به مديرة الثانوية، احببت الطالبات كثيرا فهن مجدات، يقبلن على درسي بحب كبير، تعرفت الى صديقات عديدات، الست هيبت كانت مدرسة مادتي الجبر والهندسة للثاني والثالث متوسط، كان منزلها قريبا من منزل جدي، طريقنا واحد في الذهاب الى المدرسة، لكننا نتباين في العودة الى البيت، دعتني

الست هيبت الى منزلها وعرفتني بخالتها التي تستطيع ان تجمع المحبين، ولا تدع لوعة الحب تستوطن النفوس سألتني:

- درست المراحل الدراسية كلها، الابتدائية والمتوسطة والثانوية والجامعة؟
- نعم درست كل هذه المراحل .
- ألم يخفق قلبك بالحب؟
- خفق مرات عديدة!
- والنتيجة؟
- ليس هناك نتيجة! كنت طالبة، فليس من المعقول ان اسمح لقصص الحب ان تكتمل!
- وماذا كنت تفعلين لإطفاء لهيبها؟
- بالقراءة والكتابة والاستماع الى الموسيقى والتمشي!
- أليس في قلبك الآن حبيب واحد؟
- بلى، لكني خنقت حبي له حين ادركت انه لا مجال لنا بالتواصل!
- وهل ما زال حبه قويا في قلبك؟
- ربما وقليلا، لماذا انعش عواطفي والحياة لا تسمح لنا؟
- لو جئتني لوجدت لك حلا!
- ما هو علاجك للقلوب المشتعلة؟
- وتقولين ان قلبك أطفأت حريقه؟
- نعم حاولت ان أطفئ لهيبي، ولكن الشوق احيانا يستبد بي!
- حبيبك ما اسمه؟

- أحمد .
- وما اسم امه؟
- لا ادري! زميلي بالدراسة كيف اعرف اسم امه؟
- ان عرفت اسم الام سوف اصنع لك قلادة تقيك من جفاف الحياة ويبوستها!
- لكني لا اعرف اسم ام حبيبي الذي لم يعرف انني اكن له شعورا بالحب!
- سأصنع لك قلادة تجعل ايامك ترفل بالمحبة والسرور!

صنعت لي السيدة قلادتها ، وضعتها على عنقي بعد ان اخبرتني:

- القلادة صنعتها خصيصا لك!
- انها لينة لزجة من اي شيء صنعتها؟
- من جلد الافعى!
- وهل يمكن ان تجعل حياتي نابضة بالحب؟
- جميع من صنعت لهم القلادات اصبحت حيواتهم مترعة بالسعادة!

صدقتُ بالعلاج الذي صنعته خالة زميلتي هيبت، ولكن حياتي لم تجد نورها!

تنتقل سميرة الى احدى المدارس الثانوية في بغداد، تحسب محاضراتها في ثانوية الكوت لمدة عامين خدمة لها لأغراض الترفيع والتقاعد، تؤجر منزلا يشاركها السكن فيه امها وشقيقتها، تتمنى ان تستطيع ان تجمع افراد أسرتها الكبيرة في سكن واحد، لكن احلامها تجهض ولا يتحقق اي حلم منها، ترغب ان ترى والدها الذي بقي في المعتقل سنين طويلة، ولكن طلبها ذاك لا تستجيب له السلطات المسؤولة، تشعر ان حياتها ناقصة تخلو من البهجة، اختها بشرى تتزوج وتسافر مع زوجها الى خارج العراق واخوها الكبير هشام يسافر مع زوجته واولادهما الى الخليج، واخواها كريم وصائب تغيب اخبارهما عنها، بعد ان حاولا زيارة والدهم في المعتقل، لا تعرف من تسأل عنهما، ولا تدري من يمكن ان يدلها على الغائبين الذين طال غيابهم، تتمرض سميرة بسبب الشوق الى الأحبة الذين حرمت من رؤيتهم، يهددونها في المدرسة انها ان ابانت عن غضبها لاختفاء شقيقيها وسفر اخيها الكبير واختها وبينت حنينها الى ابيها وتوقها الى اللقاء به بعد هذا الغياب، انها بذلك قد تجعلهم يتذكرون نشاطها القديم في جمع التبرعات لعوائل الشهداء، نصحها العارفون ان تسكت وان تحرص الا تقول كلمة قد تدل على عدم الرضا، اخبرها الأصدقاء الحريصون على سلامتها انه في عام ١٩٦٣ حين سئلت عمن حثها على جمع التبرعات وعن اسماء الذين استجابوا لدعوتها وتبرعوا

بمبالغ لأسر قد اعدم معيلوها ، ولم يبق لها من يعطف على حرمانها ويلبي حاجاتها :

- لقد خرجت من المعتقل حنيذاك لأن جدك واباك قد وجدا واسطة اخرجتك، لولا تلك الواسطة لمت في ذلك العام، فاحمدي الله على سلامتك وبقائك حية طول هذه السنين، !

- لكني محرومة اليوم من ابي ومن اخوتي واخواتي!

- وضعك افضل مما يعيشه الكثيرون، لقد اقترح بعض الأشخاص ان تشهدي ضد ابيك حين اعتقاله في عام ١٩٦٩ ، ولكن خيار الناس قد عملوا للحيلولة دون تنفيذ ذلك الاقتراح البائس!

- وكيف اشهد ضد ابي؟ وقد سبق لهم ان يقترحوا أن أشهد ضد أبي عام ١٩٦٣ ، البعيدون عني لم أستطع افشاء أسرارهم، كيف يمكنني ان اعمل لما يؤذي ابي الحبيب؟

- لا يمكنك، من المستحيل ان تقوم ابنة بارة مثلك بالإساءة الى ابيها الذي تحبه كثيرا ..فلا تظهري شوقك الى الوالد الذي احببناه جميعنا ، وخبئي حنينك الى اخوتك الذين لا تعرفين مكانهم!

- أخواي المسافران اعرف مكانهما واكتب لهما واتصل بهما هاتفيا احيانا!

- حسنا تفعلين!

- كريم وصائب لا ادري ماذا حل بهما! وأخشى ان أسأل عنهما! لئلا يسبب سؤالي اذى لهما!

- لا تسألي عن الغائبين مجبرين، اسمعي نصيحتي ونفذيها!

وانت لا تعرفين ماذا يجري؟ كلنا نعيش داخل سجن كبير!

- نعم صدقت يا اخي!

- اخشى من الحديث مع احد بهذه الامور! انت الوحيدة التي أثق بها، انت ابنة الانسان الذي علمني كل شيء، ولم يفشي باسمي وتحمل ان يعاقب لوحده! كيف لا أثق بك وانت من رباها رجل شجاع وشهم نبيل!

- أشتاق لك يا ابي!

- قوليها بقلبك يا ابنة اخي العزيز!

(٦٢)

انجح في الوصول الى تحقيق حلمي في العمل، يستجاب لطلبي في تدريس الطالبات في ثانوية في بغداد، وتحسب سنتان اشتغلت فيهما محاضرة في اللغة الانجليزية في الكوت، راحتي متوفرة في العمل، لكني اشعر بغربة قاتلة، لا أثق بأحد وأخاف من الجميع، انت بعيد عني، لا اعرف اين وضعوك؟ واخوتي تفرقوا في امكنة عديدة، اختي تزوجت وسافرت الى خارج العراق، وأخواي ارتحلا احدهما الى الخليج والآخر الى اوربا، بقيت امي تحن الى ابنائها وبناتها الذين جعلهم الطغيان يفارقونها، اختي سهام ظلت معي، لم افكر بالرحيل عن البلد الذي اعشقه، كما ان سهام لم تشأ ان تتحمل آلام الغربة لتشعر بالأمان في بلاد بعيدة، وهي تدرك انه لا امان يستطيع الانسان ان يحققه وهو بعيد عن مكان الاحبة! اسرتنا الكبيرة تشتتت وذهب كل من افرادها الى مكان

مختلف، حتى الكلام اصبح محرما علينا ، نخشى من الجدران ان تقوم بنقل ما تسمعه منا بعد ان تزيد عليه وتضع له البهارات والملح الى من لا يعرف كنه الكلام، أشتاق اليك والى كل الأحباب، ارغم نفسي على الصمت وايثاره على النطق باي كلمة قد تفسر خطأ وتودي بنا الى موارد التهلكة، اصبحت اجيد الصمت، فهو الوحيد القادر على حمايتنا من مصير مجهول، حتى الصمت صار لا ينفع في ظل ما نعيشه من استتباب الخوف، ابن العم فريد عوقب لأنه سكت على كلمات اطلقها بعض اصدقائه ولم يقم بالدفاع عن القائد حين هاجمه احد الأشخاص، اصبحت الحياة جحيما لا يطاق ونحن نطيل الصمت حتى نسيت ألسنتنا كيف يكون نطق الحروف، احمد الله كثيرا ان مادتي التي اقوم بتدريسها للطالبات لا تستدعي الكلام خارج المنهج المقرر، فأنا اعلم اللغة الانجليزية وهي لغة لا يفهمها الكثيرون، صحيح انني حققت انجازا في تدريسها وأصبحت الطالبات ماهرات في التحدث بها ، والتعبير عن أنفسهن وطموحاتهن بهذه اللغة الجميلة ، الا ان السامعين لا يرقون الى المستوى الذي يوجهون التهم فيه الى من يعبر عن تعبه المتواصل باللغة الانجليزية ، تجري الحياة بأتعس ما تكون الأيام، نبحث عن مواد غذائية كثيرة ولا نجدها وتصيبنا الحيرة كيف يمكن ان نهيىء طبخة للغداء والعشاء والاسواق تخلو من مواد ضرورية جدا مثل الطماطة والبصل، احيانا نفقد الشاي ونبحث عنه طويلا دون ان نعثر له على اثر ..

امي تعاني الكثير من الهموم مما تسبب لها اوجاعا وأمراضا ،

حين تراجع طبيبا ، يسأل:

- كم ابن وبنت عندك؟
- عشر .
- واين هم؟ هل هم قريبون منك ويقومون بزيارتك؟
- انهم بعيدون فرقت بيننا الأيام .
- لا بأس سيدتي .. الصبر جميل .

لانعرف كيف نجعل امي تنسى معاناتها الطويلة وبعدها عنك وعن احبابها الابناء والبنات، تنظر الي والى اختي وتحمد اللّه اننا سالمتين ونعيش معها ، نستمع الى من يسكن قريبا منا وهو يعدد المصاعب التي تعترض طريقه، ونقول لأنفسنا :

- الحمد للّه ان حالنا افضل!

(٦٣)

تعود سميرة الى بغد اد التي تعشقها ، وقضت كل عمرها فيها ، طفولتها التي جربت فيها ثقل المسؤولية وشبابها الحزين حيث ابعد الوالد عنها ، بقيت لا يمكنها ان تثق بإنسان بعد ان كثر الواشون وممزقو الاسر ومبعدو الأحباب، بعد ن احبت زميلها في الجامعة الاستاذ احمد وتعاهدا على الوفاء، وغابت اخباره عنها بعد التخرج، سالت عنه احدى الزميلات:

- يشتغل في الصحافة ويكتب عن الفن
- اعرف انه فنان مجيد!
- هو لم تنقطع اخباره عنك، انت ابتعدت وسافرت الى خارج

بغداد واشتغلت هناك! يسأل عنك دائما!

- بلغيه تحياتي!

جاءها احمد يوما عازما تجديد قصة الحب التي ظنت سميرة انها فشلت:

- اريد أن أتقد م لخطبتك، وأطلب يدك من الوالدة!
- كنا نؤخر الاعلان عن حبنا الا بعد عودة الوالد!
- الوالد تأخر كثيرا، لا استطيع البقاء في بغداد، قبض على اخوتي وهناك اعترافات على نشاطي، سوف اخطبك ونتزوج بسرعة ونغادر العراق الى الى احدى الدول الخليجية ونعمل كلانا هناك ...
- لا يمكن ان اترك امي واختي لوحدهما!
- بقاؤك هنا خطر علينا، سوف يطالبونك بإفشاء اسرار من كتمت امرهم في عام ١٩٦٣..
- لم يوجه لي احد استفسارا حول هذا الأمر!
- ان سكتوا عن مطالبتكم حين كنت في الكوت فهذا عائد لاحترامهم جدك الشيخ الكبير!
- لا اظن انهم سيتهمونني بشيء!
- كلنا متهمون عزيزتي، لا أستطيع ان اسافر لوحدي!
- لنعلن خطوبتنا هذا اليوم ونعقد قراننا!
- ونسافر معا؟
- سافر انت اولا! وسوف ألحق بك بعد عام، حين تجد اختي عملا مناسبا، اهلي يعرفونك جيدا ويحبونك!

- انا احبهم لأني اعشق ابنتهم!

- لأني احبك يجب ان تسرع بالسفر!

اخشى عليك مثلما تخافين انت، وضعنا مرعب، لن ينجو احد منا الا بمعجزة! ليست ايامنا زمن المعجزات حبيبتي سميرة، مضى ذلك الزمن مع اناسه الطيبين!

- أناس عصرنا هذا طيبون جدا، لكن نظام الحكم عندنا سيء!

- وجعلنا نهرب من بلادنا الجميلة ونبحث عن اوطان بديلة، ولكن لا وطن غير العراق، فالعيش فيه مرادنا واقصى ما نأمل في هذه الحياة ....

يخطب الأستاذ احمد سميرة وترحب الوالدة بخطيب ابنتها الحبيبة، يخبران الوالدة ان عقد القران سيكون في الغد، وان اثنين من اصدقاء احمد متهيئان كي يشهدا

- كنت اتمنى ان يكون والد سميرة حاضرا ..

- طالت غيبته خالتي، وانتم لا تعرفون اخباره!

- لم يعودوا يسمحون لنا بزيارته، حاولنا عددا من المرات ان نقدم طلبا بالزيارة، وكل مرة نجابه بالرفض!

(٦٤)

لم أستطع مواصلة الحياة وحبيبي احمد قد غادر العراق هربا من بطش النظام القائم، ساعدت اختي سهام على العثور على عمل بسيط في وزارة التعليم العالي، وطالبت بإصدار جواز جديد لي،

كنت قلقة تستبد بي الحيرة هل يمكن ان أترك امي واختي لوحدهما في بغداد، وأسرتي الكبيرة تفرقت بين المنافي والمعتقلات، وأنت أيها الحبيب قد ابتعدت مجبرا عن زوجتك واولادك الأحباب، لا أعرف ماذا يجري لهم، نصحني العارفون الا أفشي احزاني، وان أرسم الابتسامة على وجهي، لم يكن بمقدوري ان أخفي الأحزان الدائمة، مشاعري تظهر بوضوح على محياي، وكم وجه المعارف لي سؤالا لم أعرف بعد كيف أجيب عنه:

- ما بك؟ لماذا انت حزينة؟
- لست حزينة!
- انت لا تعرفين كيف تخفين مشاعرك! وجهك معبر!
- ربما انا متعبة قليلا!
- نظراتك تشي بتعبك الكبير!

وحين أقرر ان أظل مع حبيبتي الام والأخت، ينتابني الشوق الى الحبيب المسافر، الذي يجب ان أكون برفقته لأشاركه الحياة، كما هو واجب الزوجة، أفكر اي القرارين اقرب الى القلب وايهما اكثر صوابا، فأهتدي الى ان السفر والالتحاق بالزوج هو الواجب ايضا، أسمع نصيحة امي:

- عليك بالسفر يا ابنتي!
- لا اقدر على فراقكما انت وشقيقتي سهام!
- ولكن الأيام تمضي والعمر قصير!
- وما رأيك:؟

- ان تقومي بالسفر، زوجك أرسل لك يدعوك الى اللحاق به، فسارعي الى تنفيذ رعبته!

أحجز على الخطوط الجوية للسفر الى الكويت بعد ان استطعت الحصول على تأشيرة الدحول لأني قدمت دعوة من زوجي المسافر، أهيىء ما يلزم السفر وأخذ معي الأشياء التي لا يمكن الاستغناء عنها، فليس من حقي ان يكون في حقيبة السفر اكثر من عشرين كيلوغراما، تركت الحاجات التي لست بحاجتها دائما مع سهام، نمت قلقة بعد ان هيأت حقيبة السفر والجواز والتأشيرة ....

أستمع الى نشرة الأخبار قبل خروجي من المنزل، أفاجأ بقرار لم أكن أتوقعه:

- ممنوع السفر لكل العراقيين الا من كان مريضا وعلاجه لا يتوفر داخل البلاد، وسفر المرضى ينظم بقرار من الجهات المسؤولة!

(٦٥)

يصدر قرار منع السفر، فيزيد احزان سميرة، يرتسم على وجهها القلق، لم تستطع ان تخفي ما ألم بها من مخاوف الا تتمكن من رؤية زوجها المسافر، امها واختها يشعران انهما السبب في حرمان حبيبتهما من الرجل الذي احبته وارتضت ان ترتبط به بعلاقة متينة قبل ان يسافر، على امل ان تتمكن من اللحاق به الى بلاد الغربة، ولكن ها ان القرار بمنع السفر عن العراقيين يصدر

فيفاقم الأحزان ويزيد من اشتعال النفوس التي آلمها ان تجد نفسها بعيدة عن الأحباب، كيف يمكن لسميرة المرهفة الشعور ان تواصل الحياة وان تستمر على اخلاصها في العمل ومحبتها للطالبات وحرصها على تعليمهن اللغة احسن تعليم، هل يستطيع المحروم من الحب ان يحب احدا وقلبه مكلوم وايامه ضائعة، وعواطفه غائبة في مكان بعيد، ها ان احبابها يبتعدون الواحد تلو الآخر، ابتدأ مشوار الحرمان باعتقال الوالد الحبيب ثم جاء القبض على شقيقيها، ثم رحيل اختها الى المنفى، واخيرا سفر الحبيب احمد الى خارج العراق، وحين اقتنعت انه من الضروري ان تسافر هي ايضا بعد ان وجدت عملا بسيطا لأختها سهام، وقبل ان تشعر ببعض الفرح لأنها سوف تتمكن من رؤية الحبيب، يصدر قرار منع السفر، اي حياة يعيشها العراقيون وقد كتبت عليهم الحروب والابادة وتقتيل الابناء وتشريد الأحباب وقضاء العمر بالغصات، ماذا جنى العراقيون وهم يقضون زهرة شبابهم في سجون ومعتقلات وضرب وتعذيب وتنكيل؟ لماذا كتب علينا ان نحيا بحرمان متواصل من كل الحقوق التي ينعم بها الناس في انحاء العالم؟ تساءل سميرة نفسها وتفكر طويلا فيما آل اليه حالها وحال أسرتها ولا تجرؤ على التساؤل امام الوالدة وسهام لئلا تزيدهما حزنا وشعورا بالمرارة، يكفي ان حياتهما صارت حنظلا وسوادا وصحراء قاحلة، لا فيء فيها ولا دفء، مضى الأحباب الذين يمنحون الحياة معناها واصبحت الأيام علقما لا اثر للجمال فيها، تنتهي السنون وتتبدل الأيام ويمضي الشباب وحرماننا

يتضخم ويتناسل، نحن الشعب الطيب لم نرتكب اثما لتصبح ايامنا كالحة السواد، ولتنطفئ جذوتنا و تدركنا الشيخوخة قبل ان نرى الشباب وننعم بمميزاته ...

تمر ايام سميرة والأحزان تتراكم عليها، لا يستطيع احمد الاتصال بها الا عبر كلمات قليلة يقولها في الهاتف الذي كان يأتيها في الأسبوع مرة وأصبح في الشهر مرة واحدة، ثم انقطعت المكالمات رغم ان سميرة كانت ظمأى لكل كلمة يستطيع احمد ان يعبر بها عن شعوره وحبه، لكن الهاتف اصبح ضنينا لا يستطيع ان يطفئ اللوعة التي شعرت بها سميرة وهي ترى ان ايامها تخبو ولا قدرة لها على ايجاد من يقدر على اشعالها من جديد ..

لا خبر جديد من احمد ولا احد يأتي ومعه ماذا حصل للوالد او الشقيقين المعتقلين اللذين اختفت عن الأسرة اخبارهما، تمر الأيام وسميرة تشعر ان جبالا من الهموم تثقل كاهلها، فالى متى تستمر المعاناة والى اي مدى يتحمل الانسان؟ والقدرة محدودة والصبر عزيز؟

(٦٦)

أنتظر ان يأتيني خبر من الحبيب المسافر، تمضي الأيام ثقيلة قاسية ولا شيء ينبئ عن احمد الغائب وكيف يعيش ايامه؟ وهل حصل على عمل مناسب لمؤهلاته وقدراته التي أراها كبيرة ومتنوعة، أتساءل عن السبب الذي جعله يمتنع عن ارسال الرسائل او الاتصال هاتفيا، كان يهاتفني في بداية رحيله كل يوم تقريبا، ثم طالت الفترة بين هاتف وآخر، وبقيت تطول وانتظاري يكبر

ويتضخم، وليس هناك ما يطفئ قلقي، ويضع حدا لمخاوفي الآخذة بازدياد رهيب، كلهم يقضون حياتهم برعب قاتل، ان يرحل كل يوم احد الأحباب ويجعل الحياة مجدبة بعد ان انتعش الناس فيها اياما قليلة، عاد الظلم من جديد ليحصد الأرواح البريئة ويقضي على النفوس المتعطشة الى الحرية والكرامة، انعدمت القدرة على الكلام واصبح الصمت صعبا، يمكن ان يؤول السكوت ويتهم الصامت بتهم كثيرة قد تقضي على حياته وتسبب له آلاما لا تطاق، قد يكون الموت اسهل منها واكثر رحمة، صار الناس يتمنون ان يودعوا هذا العالم الموبوء، قبل ان يضطرهم الظلام المسيطر الى فقد الأحباب الذين يجعلون للحياة معنى، يسألني المعارف عن غياب احمد وهل يتصل بي هاتفيا او يبعث الرسائل ونحن كما يعرفون قد عقدنا القران قبل السفر، على امل ان ألتحق به قريبا، سؤال الناس يجعلني أصاب بالإحباط، انهم يعرفون ان السفر ممنوع فلماذا يكثرون من الأسئلة؟ امن اجل زيادة الأوجاع؟ وجعل النار التي في القلب تحرق النفس والروح وتغتال الآمال الجميلة والتطلع الى حياة رغيدة مع الحبيب، اي حلم يمكن ان يداعب النفس والحب لاوجود له واحمد قد رحل بعيدا، وإنا لا أدري ماذا حل به؟ ولماذا انقطع اتصاله الهاتفي، هل هو في ضيق؟ هل منعه المرض عن الاتصال؟ ام ما زال يبحث عن عمل مناسب؟ الاعمال متوفرة في الكويت، وان احمد قادر على الحصول على اي عمل يريده يتلاءم مع المؤهلات الكثيرة التي يملكها؟ الحيرة تقتلني وتجعلني لا أعرف ماذا أفعل؟ واي الطرق أسلك؟ وكلها وعرة من سار عليها ناه، وضاعت عنه المعالم، فكل

امر شائك، السهولة واليسر اللذين كانا متوفرين ذهب امدهما، حل بدلا عنهما الضيق والقلق والاستبداد، وان تظل صامتا لا تعرف ماذا تقول؟ لئلا تتهم بأمر انت بعيد عنه كل البعد، او تتسبب في فقد احبابك او احد اقربائك، أعجز عن فعل شيء بعد ان رحل الاحباب، وتركوني في يم لا قبل لي باجتيازه، البحر هائج لا يعرف الهدوء وأنا اجهل مبادئ السباحة، حيرتي كبيرة أنتظر، عل الحبيب الغائب يفكر بي اخيرا، وعسى احمد يتذكر ان له زوجة تركها في جحيم العراق، تتطلع الى ان تذهب اليه، لكنها تعرف ان تفكيرها مجرد أضغاث احلام! كيف يمكنني ان أرحل عن النار المشتعلة، ولم يدعني الحبيب الى احضانه؟ هل أستطيع ان أجد الخلاص من حياة تشبه الموت؟ وان أضع حدا لمعاناة طويلة امتدت سنين وأنا صاغرة أنتظر، من يمكنه ان يغير الأيام؟ يجعلها تبتسم من جديد؟ والاحبة يتناقصون؟ كل يوم يفجع المعارف والأصدقاء بموت احد او اغتيال قريب او اعدام رفيق!!! و لا قدرة لي على الصبر المر مذاقه!

(٦٧)

أيامك تمضي لا فرح فيها ولا بهجة، تستيقظين مبكرة كل صباح للعناية بأمه المريضة، تهيئين طعام الفطور لمن يبقى في المنزل نائما، يستيقظ متى رغب في الاستيقاظ، ليجدك قد وضعت الخبز الساخن وقطع الجبن وكؤوس الحليب على المائدة التي اعددتها للمحظوظين حولك، تسارعين في الخروج من المنزل الذي نظفته وعطرته كي يسر من ينتقدك طوال الوقت:

- الحليب كان باردا ، لماذا لم نجده ساخنا؟ ولم انت تنفردين دوننا جميعا بشرب الحليب ساختا؟

- تركته ساخنا وانتم بقيتم نائمين حتى برد!

- سبحان اللّه! هل تفرضين علينا وقت الاستيقاظ؟

- لا افرض، أستميحكم العذر، ولكن عندي دوام!

- من واجبك ان تهيئي كل ما نحتاج قبل خروجك الى العمل!

- جهزت كل شيء، ثم خرجت، ساعة بدء العمل لا يمكن تأجيلها! في الثامنة صباحا تماما نكون على استعداد!

- وماذا كنت تنتظرين؟

- سلامتكم!

- هل تسخرين حضرتك؟

- عفوا!

- نعم...... من واجبك أن تعتذري!

كل يوم تشهدين هذه المسرحية التي لا تريد ان تنتهي، تأملين فقط ان يرضوا عنك، ولكن عبثا كل محاولاتك! في العمل تحققين النجاح، تثني على جهودك رئيستك وزميلاتك الموظفات وزملاؤك الموظفون، حياتك يابسة ولياليك باردة، انت لعبة بأيديهم، يحركونها كيف يشاؤون، تخدمينهم بإخلاص منقطع النظير، تعودين متعبة آخر النهار، تجدين المنزل الذي نظفته في الصباح ورتبته قد توسخ، وان الصحون التي غسلتها قد تراكمت مرة اخرى في مغسلة المطبخ، وان سلة الغسيل التي وضعت في غسالة الملابس قبل يومين كل محتوياتها ، قد امتلأت بملابس

وسخة، تدخلين المنزل، لتتمكني من تناول الطعام الذي طبختـه في ليلة الأمس قد نفذ كله! لا تجرئين على الاستفسار:

- اين غدائي؟

تهيئين طعاما سريعا تقومين بالتهامه دون رغبة منك، انت آلة بحاجة الى الوقود، ومن معك لا يعرفون بحاجة الآلات! جردوك من صفات الانسان، وكانوا يظنون انهم هم البشر الذين يستحقون الاحترام والتبجيل، وانت مخلوقة رماها الدهر في طريقهم، عليك التعب والشقاء، وعليهم التمتع بعاقبة تعبك المتواصل ليل نهار، تستمر معاناتك، تحلمين انك يمكن ان تخففي من الآلام التي تتجرعينها، وحين تخيب احلامك المجهضة، تعاودين الآمل مرات أخر، من زرع الرغبة في الحياة بأعماقك، ومن بث حب العمل في عروقك؟ ومن جعلك تتوقين الى المحبة رغم ان من يحيط بك لا قلب لهم، تستمرين في الكدح وهم يواصلون استغلالك، اي قدرة على الصبر قد اودعها الخالق فيك؟! تهدأ نفسك ويزول عن اعماقك التعب، فانت ما زلت تصارعين الفشل وتستطعين التغلب عليه!

(٦٨)

تستبد الحيرة بسميرة التي لا تدري كيف تتصرف؟ اتصل بها زوجها احمد واخبرها انه لا يستطيع ان يظل بلا زوجة فترة طويلة، وانها يجب ان تحاول الحصول على موافقة المسؤولين على سفرها الى الخليج والالتحاق بالزوج الذي لا ينبغي ان يطيل الانتظار، اخبرها ان هناك امرأة عراقية توفي زوجها ابدت اعجابها

بشخصيته ويريد ان يلبي نداءها ، وسأل احمد سميرة هل تستطيع ان تحقق ما يريده منها وتطلب الموافقة على سفرها؟ تسارع سميرة الى تقديم طلب الى المسؤولين، وتقدم مع الطلب وثيقة الزواج:

- لماذا تريدين السفر الى الخارج؟
- كي التحق بزوجي!
- ولكن زوجك خائن،يقوم بأعمال معادية لبلادنا!
- زوجي احمد عبد الهادي!
- نعرفه تمام المعرفة، كنا نراقب ما يقوم به وقد تأكد لنا انه يتصل بجماعات تبدي للعراق عداء!
- احمد يحب الوطن ويعشقه!
- هل تناقشينا في ما نقوله، لنا اتصالاتنا التي نتأكد بها من المعلومات التي ترد الينا من مصادر كثيرة!
- كيف اتضح لكم انه يتصل بمن يعادي العراق؟
- كنا نراقبه قبل سفره، لم يقم بأعمال عدائية كثيرة حين كان في الداخل، وحين وصل الى الكويت اخذ يجتمع بجماعات تريد شرا بالوطن العزيز، انت اصبحت مواطنة صالحة، وانقطعت علاقتك القديمة بالجماعات المعادية ..
- طوال عمري احب بلادي حبا ملك علي نفسي!
- لن نناقشك في ما مضى، انت تغيرت الآن، ان كررت طلبك بالسفر سوف تؤكدين لنا شكوكنا انك تشاركين زوجك في نشاطه العدائي! لماذا يتصل بك الان بعد ان تزايدت محاولات القوى المعادية للانقضاض علينا!

- نحن متزوجان ومن واجبي ان اكون برفقته!

- انت مواطنة عراقية، وزوجك أخذت الشكوك تحوم حوله بسبب علاقته مع اشخاص، يكنون العداء للعراق ويتصلون بدول اجنبية ... لا تردي على طلبه ولا تحاولي الاتصال به . وان كرر طلبه لك بالسفر قدمي طلبا لطلاقك منه! وسوف نقف معك، من حق المواطنة العراقية ان تطلق زوجها اذا ثبتت خيانته!

- ليس من شيمتنا ان تطلق المرأة العراقية زوجها!

- ان لم تطالبي بحقك بالانفصال عن زوج خائن للوطن، سوف نقوم نحن بتطليقك من علاقة زوجية لا تناسبك، ولا تتلاءم مع ما نريده للمواطنات العراقيات اللاتي يحببن العراق ويقدمن من اجل رفعته التضحيات الجسام، نحن لانطلب منك شيئا فوق طاقتك، لم تعيشا معا ومن السهولة ان تتفارقا، اكتبي له وأخبريه انك لا تقدرين على فراق الناس الذين تحبينهم، وان كان عنده ضمير، سوف يبعث لك ورقة الطلاق! ماذا يظن هل تبقين طوال عمرك بلا زواج، وهو ينذرك انه سيقوم بالزواج لأنه لا يستطيع البقاء دون امرأة!

- احمد لم ينذرني ..

- وماذا تسمين ان يطلب منك السفر؟ هيا لا تناقشي كوني شجاعة ! وطالبي بالانفصال! اتعجب كثيرا من حال نسائنا يدعون الى المساواة ويناضلن من أجلها، ولكنهن يسكتن ان لعب الرجال وصادقوا نساء اخريات . هل يوافق الرجل ان صادقت زوجته زملاءها في العمل؟ ألا يطالبها بوضع حد لإعجاب زميلها بها؟

(٦٩)

أنتظر طويلا ، تصيبني الحيرة كيف عرفوا برسالة احمد؟ لم اخبرهم انه تعرف الى امرأة أخرى ويريد الاقتران بها؟ من أنبأهم؟ وانا لم اقم بنقل اخباره لهم، كيف أجيب عن رسالة الزوج المسافر، ينصحني الأصدقاء ومنهم القابضون على مقاليد الأمور ان أترك الزوج الغائب، ولا أدعهم يعرفون ان ذلك الزوج ارسل رسالة الى زوجته ينبئها انه لا يمكنه البقاء دون زوجة ، فهمت من رسالته انه كتب الي ليخبرني برغبته بالاقتران بزوجة اخرى، يعرف ان العراقيات يستطعن الانتظار طويلا والبقاء بعيدات عن الأزواج الغائبين في بلاد بعيدة، لقد اعتادت العراقية ان تصون نفسها وتخلص لرجل آثر الارتباط بأخرى بحجة انه لا يستطيع صبرا ، ويدرك ان المرأة قد تتكلف المصاعب والحرمان من الحب رغبة في المحافظة على الوفاء، سهام تنصحني بان أفكر قليلا بحياتي المقبلة وأن أدع التمسك بالوفاء لمن لا يتحلى به، تقول سهام:

- انك ما زلت شابة ومن حقك ان تحبي وتتزوجي!
- وهذا الغائب ايضا احببته وتزوجته!
- لكنك لم تتزوجي فعلا! انما عقدت قرانكما على الورق!
- وشهد شاهدان على عقد القران!
- اين ذهب الشاهدان؟ انهما اختفيا كما اختفى الزوج!
- الغائبون معذورون!

- والمحرومات لا عذر لهن؟لماذا تخلصين لمن لا وفاء له؟ لم تتزوجا بعد! المرأة تصبر على الأذى ان كان لها اولاد! فلأي شيء تطيلين الصبر وتتحملي الوحدة؟

- من يعذر امرأة تخلت عن زوجها في ساعة الشدة؟

- اي شدة هذه التي تجعل رجلا متزوجا يرتبط بأخرى؟

- لا يستطيع صبرا!

- وهل تقدرين على الصبر انت؟ وانت تعيشين بلا رجل؟ وزوجك الذي تحافظين على عقد زواجك منه قد فك الارتباط؟ هل يمكنك ان تبقي ارملة وزوجك ينعم بالدفء والقبل والوصال؟

- لا ادري! حين سافر احتملت الصبر رغبة في التئام الشمل!

- وها ان الشمل قد انقطعت حباله!

- وبماذا تنصحينني؟

- لا تطيعي القابضين على مقاليد الامور في مطالبتهم لك ان تطلقي زوجك الغائب، بل ردي على رسالة احمد بان تطلبي الطلاق وله الحرية بأن يرتبط بمن يشاء!

- لا يجرحه طلبي؟

- وماذا يمكنك ان تفعلي؟ السفر ممنوع وانت لا تستطيعين اللحاق به، لو لم يتعرف الى امرأة اخرى ما كتب لك! هو يعلم ان السفر ممنوع في بلادنا ، وانت لا تقدرين على السفر دون موافقة المسؤولين! هل يمكنك ان تسافري هروبا كما يفعل بعض الرجال؟

- قبل وصول رسالة احمد كنت افكر بالسفر عن طريق غير

آمن، قد يكلفني الكثير! ولكن بعد استلامي للرسالة لم اعد افكر بالسفر!

- فعلا عزيزتي! لو كان يريدك ان تلتحقي به لفكر بطريقة آمنة لا تعرضك للمتاعب!هل اخبرك ان هناك أرملة تبدي اعجابها بشخصه؟

- نعم اخبرني!

- وهل تبدي المرأة اعجابها دون ان تعرف ان الرجل يبادلها الاعجاب؟ حاولي عزيزتي الا تجعلي الحياة تهرب منك!

- لقد بدأت هروبها منذ فترة!

- ضعي حدا للهروب وابدئي ايامك بالفرح! انت جميلة والكثيرون يعجبون بشخصيتك وذكائك وجمالك!

- سوف اتخلص من حب الرجل الغائب! كلفني حبه حياتي وقدرتي! حتى الابتسامة نسيتها!

- اجعلي الابتسامة تعود الى ثغرك!

(٧٠)

تشتد معاناتك كل يوم، الاعمال الشاقة نفسها، والتجاهل الذي تتلقينه من زوجك عينه، وايامك تشتعل دون ان تستطيعي إطفاءها، لا قدرة لك، تمضي لياليك في السهد والأرق، وتسير نهاراتك وانت منشغلة بكل امور المنزل، الذي لا تملكين منه شيئا، آخر الشهر تستلمين راتبك من عمل مضن، فيقوم هو وامه المريضة بوضع اليد على النقود التي يعطيك اياها العمل، تحبين

عملك وتتمنين ان تتمكني من البقاء فيه طويلا، المنزل القاسي يعذبك، ولا يدعك تنعمين بسماع كلمة تنسيك ما ألم بك من آلام، وما لحق بقلبك من جراحات لا احد يمكنه ان ينجدك، ويخفف معاناتك، من يستطيع ان ينقذ امرأة متزوجة من تلابيب رجل لا قدرة له على ضمك وتقبيلك، ما زلت عذراء والناس يوجهون لك سؤالا لا تعرفين كيف تجيبين عنه:

- كم لكما وانتما متزوجان؟
- عامان!
- ألم تطمحي ان يأتيك ضيف ينعش ايامك؟
- هل تعنين الطفل؟
- نعم اقصد سنتان لك وانت متزوجة! هل خططتما لعدم الانجاب في الوقت الحاضر؟
- لم نخطط لشيء!
- ولماذا؟
- لم يقدر لنا الله بعد!

تكذبين، وتنطلي كذبتك على المتسائلين، وانت حيرى! كيف يمكنك ان تضعي حدا للنيران المستعرة داخل نفسك؟ انت المحرومة من النعم التي يسبغها الازواج على زوجاتهم، وانت مثقلة بواجبات قد وضعت على كاهلك! لا احد يريد ان يساعدك في هذا المنزل الموبوء! كل افراده قساة ظالمون، ابوك المتوفى وامك التي قضت نحبها واخوتك الذين يقضون اعمارهم في السجون! من بقي لك؟ عمتك المريضة التي خطبتك لابنها كثيرا ما وجهت لك

كلماتها سما قائلا:

- اكرمناك حين زوجناك لولدي! لو تعرفين كم امرأة تمنت ان يكون ابني زوجها! لكني فكرت انك ابنة اخي واخترتك من بين جميع المعجبات!

تطول متاعبك وتتضخم أشغالهم التي يحملونها لك، فلمن تتوجهين؟ هل تكشفين آلامك لصديقتك الوفية سميرة؟ وهي تتحمل كل الصعاب بعد ان اعتقل ابوها وشقيقاها وسافر زوجها؟ وهل تستمع لسميرة عمتك وابنها وهما من ساهم في اخراج امها من منزل ابيها المتعب؟ المسؤول صادق عبد الله له الكلمة الأولى والفصل في كل الأمور، هو من يقرر كيف يتصرف كل افراد الاسرة الكريمة! هل يمكنك ان تشتكي من الظلم الذي تتعرضين له لصديقتك سميرة وهي التي لم تستطع مساعدة امها حين فرض عليها الخروج من منزل ابيها؟ اي ظلم تتحملين؟ وكم يطول صبرك؟ ومن هو الشخص الذي يمكنه ان يقف بجانبك؟ وكل الطرق مظلمة وجميع الأبواب مغلقة؟ سميرة اخوها كريم مسموعة كلمته ولكنه معتقل، فهل يستطيع ان يخفف عنك العذاب بنصيحة يسديها لزوجك المبتعد عنك؟

(٧١)

يطلب سميرة للزواج صديقها القديم عماد حسن، هي لا تشعر بالحب تحو هذا الرجل، قلبها مع الانسان الذي رحل بعيدا، مغادرا الأرض التي عشقها مل ء القلب والعقل، وصلتها رسالة اخيرة منه تنبئها انه مضطر لتطليقها بعد ان وجد انه من العسير عليها ان تلبي رغبته بالسفر رغم قانون منع السفر الذي يعاني منه كل العراقيين، ولكن الآمال البسيطة التي تتمكن من المرء في بلادنا سرعان ما تخيب ويحل محلها شعور بالهوان، لماذا تظل المرأة العراقية تكتم حبها وعواطفها لرجل ابتعد وارتبط بأخرى، وهل الشعور المستوطن في الأعماق من مميزات النساء فقط؟ لأن الرجل ينسى كل من احبهن، وتجيب سميرة عن أسئلتها الموجهة لنفسها الصامتة:

- حرام ان نظلم كل الرجال، بعضهم يحبون حقا، والأكثرون يعتبرون الحب نزوات عابرة من الأحسن نسيانها، فهي تشتعل في فترة الشباب وتنطفئ عندما يجرب الانسان ان الحياة لا يستحقها الا الأقوياء ..اما الراكضون خلف عواطفهم، فان الحياة ترفضهم ولا يستحقون الاحترام، هكذا جرى العرف، وهو الأجدر بالناس انن يتبعوه ..

عماد حسن لا تحبه سميرة، لكنها فكرت كثيرا ان الارتباط برجل يعينها على امور دنياها القاسية افضل بكثير من البقاء في صحراء باردة، لا حضن يحنو ولا قلب يرحم، ولا عقل تتخذ منه

صديقا متفهما لأمورك الصغيرة، وعماد حسن ليس بالشاب المتوثب عاطفة ولكنه قد خبر الحياة وذاق مرارتها وسميرة فكرت انه قادر على ان تعتمد عليه وتركن الى حكمته، بعد ان زارها عددا من المرات، وجلس مع امها واختها وهما يشاركان اختهما سميرة في الاستماع الى ما يقوله الرجل من أحاديث تدل انه يحترم سميرة ويريدها ان تشاركه الحياة بحلوها ومرها، أخبرها:

- نودي على مواليدي للدفاع عن الوطن تأدية للواجب المقدس، سألبي النداء، وحين أعود نعقد قراننا!

- كم ستبقى في الجيش؟

- لا أدري، نحن في حالة حرب ... انا بشوق للعيش معا، احببتك طوال عمري!

- وأنا أيضا اقدرك وأحترمك كثيرا .

- اعلم بهذه الحقيقة، سوف احرص على ان تبادليني شعوري!

- كثير من الأزواج تحولوا الى عشاق، لأنهم كانوا أصدقاء قبل الارتباط، يفهم أحدهما الآخر!

- نحن متفاهمان وصديقان وفيان، سنكون زوجين حبيبين!

- حتما حبيبتي سميرة!

يغادر زوج الغد ليلتحق بالجيش دفاعا عن الوطن، ولم تكن سميرة تعلم أن من قبلت به، وارتضت ان يكون زوجها، سيكون جنديا في بلاد تشتعل الحروب فيها بدون أسباب، تخشى من طول معاناتها في الغربة وهي داخل البلاد الحبيبة ان تطول غيبة الرجل، ولكنها تحاول ان تزرع الأمل، في داخل النفس المتعطشة للفرح ان

الغد لابد ان يكون باسما وان الشمس سوف تشرق لتبدد دياجير الظلام، عانت سميرة الكثير من المتاعب ولم تكن بسمتها تفارق وجهها الصبوح، لأنها تتفاءل دائما انه مهما اشتد الحزن والألم فان انبثاق الفجر آت...

(٧٢)

يشتد ظمؤك الى حضن حبيب، يداوي جراح نفسك ويخفف معاناتك، انت وحيدة تنامين على فراش بارد وزوجك عاجز يعلو صوت شخيره، لا أحد معك تبثينه همومك وتخبرينه بمتاعبك، مات ابوك الشيخ الطاعن في السجن بعد ان أبعد عن جنات الوطن، ابعد شقيقاك ولم تعلمي بعد في أي سجن يقطنان، اختك الوحيدة غادرت البلاد بعد ان اضطر زوجها على الرحيل الى مكان آمن لا يحاسب المرء فيه على التفوه بكلمة واحدة، قد تفسر بغير معناها، حتى الصمت يعتبر محرما في بلاد يرغم اهلها على الاعتقاد بأمور، لا يمكن ان يؤمن الانسان السليم بصحتها، لم يبق لك الا صديقة واحدة، لا تستطيعين ان تصلي الى بيتها، لتحدثيها بهموم روحك العطشى، ، ماذا يمكن ان تفعلي وطرق الحياة مسدودة أمامك، لم تكوني ضعيفة يوما لتضعي حدا لأوجاع النفس التي اخذت تتعاظم وتكثر ندوبها في الجسد والروح معا، لو كنت ضعيفة متخاذلة لآثرت الانتحار على حياة تكونين فيها ميتة، لا حرية تتمتعين بها ولا كرامة تحافظين عليها لتعيشي بسعادة، وانت ميتة ولكنك تعملين لكي ينعم الظالمون براتبك، وانت المحرومة

الثكلى التي اغتيل شبابها واهدرت حياتها ، هل انت انثى وكل من في هذا البيت يجني على انسانيتك قبل انوثتك، ويجردك من كل قواك ويجعل منك آلة صماء، انت الطباخة وآلة غسل الملابس والمموله لمشاريع لا تدرين ما كنهها ، انت الشغالة المسؤولة عن نظافة المنزل الذي لا مكان لك فيه، تتعبين من اجل لا شيء، ولا تملكين القوة كي تحبي رجلا يختاره قلبك وعقلك معا ، كيف تقومين بالحب وانت متزوجة بعرف هذا المجتمع؟ من يدريه انك تعانين من الصقيع وتتقلبين على فراش من الشوك، كل أعضائك تندب حظها وتطالبك بالعمل على استرداد كرامتها المفقودة، انت الجميلة المثقفة العاملة بإخلاص وضمير، الوحيدة الغريبة في صحراء خالية من الحياة، من يمكنه ان يشعر بالأوجاع التي تعانين منها وتحملينها اثقالا على كاهلك، كنت مدللة في بيت أبيك وقد انقلب الحال الى ضده حين سجن والدك وخير بين التعذيب حتى الموت،او مغادرة الأرض التي أحبها ، فلم تتحمل اعوامه الثمانون ما حل به، فغادر الحياة، عمتك كذبت عليه حين وعدته انها ستحسن معاملتك:

- ابنتك سوف اجعلها ابنة لي وازوجها لولدي!
- انت اختي وابنتي ابنتك!
- فعلا اخي لا تحزن، قد تجد راحتك في ديار لا تحبها!

ابوك لم يقل لأخته ولماذا يبعدونه وتعيش هي معززة مكرمة؟ بحجة التبعية؟ أليس الإخوان الشقيقان من أب واحد وام واحدة؟ لماذا يجنون على ابيك واخويك ويجبرون اختك الوحيدة على

الرحيل؟ وتعيش عمتك معززة مكرمة؟ أ لأنها والدة الدكتور الكبير عضو القيادة القطرية؟

ولماذا جعل الدكتور الكبير وحكومته الناس كلهم يبتعدون عنك؟ لم كتب عليك ان تعيشي الترمل وزوجك حي يرزق، ولماذا ينعم الآخرون بثمرة تعبك وانت المحرومة من كل الحقوق، ولماذا انت بهذا الشكل تواصلين حرمانك؟ ألا تستطيعين ان تحبي رجلا آخر يتمتع بصفات الرجولة التي حرم منها زوجك، بالإضافة الى ان يكون ذكرا ككل الأزواج؟ ليس الذنب عليهم فقط! انت ايضا الجانية الأكبر على نفسك! ماذا يضيرك ان احببت رجلا آخر يستطيع انقاذك من براثنهم، ويتزوجك وتبتعدي عن عمتك وسمومها وولديها الكبير والصغير؟ هل تجربي؟ ام تمضي الحياة بك وانت الأرملة التي لا يشعر احد بأوجاعها؟ كوني شجاعة مرة واحدة وانقذي حياتك قبل ان تذوي زهرة شبابك! فالشجاعة ليست في الموقف السياسي فقط! انما النضال من اجل حقوق القلب شجاعة كبيرة، هل تقدرين عليها وانت الوحيدة المحرومة من كل مؤازرة وتأييد؟ ماذا يضيرك ان جربت الحب قبل ان تولي ايام الشباب؟ هل تخشين ان يعاقبوا احدا من أفراد أسرتك؟ وأنت الوحيدة التي لا احد بجانبها من الحريصين على سعادتها وهنائها، هل ستجربين؟ ام ان الخوف من تلوث السمعة يقف حائلا دون ارادتك؟ الحياة ايام وتمضي فلتجربي ان تكوني سعيدة لبضعة ايام، ثم تقابلين الموت وانت سعيدة!

(٧٣)

تطالب سميرة بحق صديقتها التي تزوجت من خالها، وتذكر ان الزوجة لابد ان تتمتع بكل الحقوق التي نصت عليها القوانين الدولية والشرائع الدينية، فتقابل بالعنف وانه ليس من حقها ان تتدخل في شؤون غيرها! وان كان خالها الكبير مسؤولا في الدولة وكلامه مسموع، فهذا لا يعني ان خالها الصغير يتعرض للهجوم من كل جانب، قالت زوجة والد امها:

- كيف تقفين مع الأغراب ضد خالك؟ ألم يكن من واجبك ان تدافعي عن أقربائك الذين يحبونك وكثيرا ما وقفوا بجانبك حين تتعرضين للمتاعب! خالك حزن كثيرا وقال انه يحبك ولم يتوقع انك تتصرين الأعاجم ضد اهل امك!

- ولكن الاعجمية هذه هي ابنة أخيك!

- ولكنها لم تقدر النعمة التي وهبناها لها، حين أكرمناها وزوجناها من ابني، وأنقذناها من التهجير!

- ولكنها حزينة!

- وكيف عرفت ان السبب عائد لخالك وليس ذنبها؟

- لا أدري!

- هل اشتكت هي لك؟

- كلا!

- كيف تبيحين لنفسك ما لا يحق لها؟ من أدراك انها حزينة! اننا نبذل كل جهودنا من اجل ان تحيا مرفهة تنعم بالتدليل

والرعاية!

تصمت سميرة ولا تدري ماذا تقول؟ تظل عاجزة عن الاجابة عن التهم التي توجه لها، سميرة الحيية لا تعرف كيف ترد الكلام العنيف بمثله، وتقسو في الألفاظ، وحين تجابه بمن له القدرة على قول الكلمات القاسية تربأ بنفسها ان ترد، وخاصة ان امرأة اب امها عرفت بين الأقرباء والمعارف انها طويلة اللسان، بذيئة الكلام لا تتورع في النطق بأقذع الكلمات وان تقوم بأشنع الأفعال ان تطلبت مصلحتها ان تسحق كل من يقف بوجهها!

تغادر سميرة منزل خالها وتتوجه الى منزلها وتخبر امها بما جرى لها:

- لا تقدرين انت يا ابنتي ان تردي عليهم! هم يملكون القدرة على ايذاء الناس والحط من شأنهم، وانت رقيقة تحترمين الناس كلهم سواء كانوا يستحقون الاحترام او لا يستحقونه!

- وماذا نفعل يا امي؟

- نفعل بشأن ماذا؟

- الظلم الذي تتعرض له زوجة خالي!

- وأنا مظلومة ايضا وانت تعرضت للظلم الكبير وابوك معتقل بغير سبب، واخوك اطلقوا سراحه قبل ايام، وهو ينصف المظلوم مهما كانت النتائج، دعيه يرتاح قليلا، ثم نخبره بمدى الظلم الذي تتعرض له زوجة اخي الصغير الذي هو مظلوم ايضا، من قبل اخيه الكبير!

- كل الناس مسلوبة حقوقهم!

- لاسيما من كان طيبا مهذبا!
- اين اختي؟
- سهام ايضا حزينة!
- لماذا؟
- اكتشفت ورما في صدرها وتخشى ان الداء خبيث!
- عسى ان يكون الورم حميدا ، سأذهب معها غدا الى الطبيب للكشف عن الحقيقة!
- اختك قوية متفائلة كما نعهدها!
- كلنا متفائلون يا امي، نحن أبناء الأبوين الرائعين المميزين، تعلما منهما روعة الخصال وعظيم الهمم ...
- انا وأبوك فخورون بأننا نجحنا في غرس اجمل الشمائل في نفوسكم .....

(٧٤)

تصحب سميرة اختها سهام الى المستشفى، لفحص الورم الذي ظهر في الثدي، ويسبب لها قلقا ، اخذت اجازة من المدرسة التي تعمل فيها ، كما استأذنت سهام مديرتها ان تغيب يوما لإجراء بعض الفحوصات، كان المستشفى مزدحما والمراجعون كثيرون، مستشفى الشفاء من مستشفيات العراق الكبيرة ، وفيه اطباء متخصصون في اغلب الأمراض، راجعت سميرة طبيبا ليرشدها الى مكان فحص الأورام، سأل الطبيب:

- مم تخافون؟

- من ورم ظهر حديثا

- اورام كثيرة تظهر ثم تختفي، فهل نظن انها كلها تحمل مرضا خبيثا؟

- من الافضل الفحص، ألا تقومون هنا بفحص الورم ومعرفة سببه قبل استفحال امره؟

- لكن الازدحام شديد والمراجعون كثيرون، والانتظار يطول!

- سوف ننتظر، صحتما اهم من كل وقت!

- انتظروا ثلاث ساعات!

تغادر سميرة وسهام مكتب الطبيب، ثم تعودان بعد ساعات ثلاث:

- اذهبا الى آلة الفحص في قسم الاشعة!

يذهبان الى قسم الاشعة ويفحصون سهام:

- تعالي بعد نصف ساعة!

تراجع سميرة مع اختها قسم الاشعة، يعطونها التحليلات:

- اذهبي الى الطبيب!

يذهبان الى الطبيب، ينظر الى ورقة التحليلات وتقرير الطبيب، ويقول:

- لاخطر هناك، انه ورم حميد، سوف يزول!

- وما سبب ظهوره؟

- قد يكون السبب دهنيا سرعان ما يزول، لا تخافوا!

تخرج الشقيقتان من المستشفى وهما فرحتان، اذ ان ما كان يسبب الخوف قد زال، وتبين ان الورم حميد، سوف يزول:

- من حقنا ان نحتفل الآن فقد أظهر التحليل انه لا خطر من ورم حميد يزول بعد فترة!

يصلان المنزل وتقيم الاسرة احتفالا بسيطا فقد زالت اسباب القلق وانعدم الخوف واصبح الاطمئنان قريبا من النفوس التي ارهقتها الخشية اياما كثيرة قبل ان يزيل التحليل الخوف ....

(٧٥)

تحدثين صديقتك سميرة بمتاعبك، التي تتضخم وتتفاقم . تطلب منك ان تنتظري اخاها الذي لا يسكت عن الحق، ولا يصبر ان يتحمل انسان الأذى، ويحاول الاصلاح بالنصيحة، التي لا يملك غيرها ، تنتظرين اياما ليستريح الرجل الناصح شقيق سميرة العزيزة، وتزورينه في منزل شقيقته وتبثينه همومك، ليجد طريقا لتخفيفها عنك، يقابل زوجك ويقول له:

- أوصانا ديننا ان نحسن معاملة المرأة سواء كانت اما او اختا او زوجة او ابنة ، وان نرفق بها ولا نقسو عليها!

- نعم عزيزنا ، نعرف هذا ونحاول بكل ما بوسعنا لجعل حياة النساء في اسرتنا اجمل واقل مشقة!

- انت لم ترزق بأبناء!

- ومع الأسف!

- ألا تحب أن تكون أبا؟

- أحب من كل قلبي!

- ولماذا لم تحاول ان تحقق ما ترغب به نفسك؟

- حدثت زوجتي مرارا برغبتي هذه!
- وماذا أجابت؟
- قالت انها تريد ان تؤجل الانجاب، فنحن ما زلنا صغارا!
- وهل تعاملها كما يعامل الرجل زوجته؟
- بالطبع يا ابن اختي!
- هل دخلت بها؟
- طبعا يا ابن اختي! وأنا أحبها وهي تحبني ولكنها لا تريد الانجاب في الوقت الحاضر، فحاولت تنفيذ رغبتها!
- لكنني سمعت انك لا تصاحب زوجتك كما أمر الله!
- ما ذا تعني يا ابن اختي؟
- اعني ان زوجتك مهجورة في بيتك، لم تشهد عرسا ولا زواجا، فكيف يمكنها ان تنجب وتحقق رغبتها ان تكون أما؟
- انها كاذبة والله! كيف تفشي أمورنا الخاصة؟ وكيف تبيح لنفسك ان تتدخل فيما لا يعنيك؟ انت ابن اختي العزيزة علي، ولكن هذا القرب لا يعطيك حقا في التدخل في شؤوننا الشخصية!
- انت خالي ومن واجبي ان ابين لك فداحة ما تقوم به من ظلم الزوجة، وعليك ان تغير من سلوكك وتقوم بمعاملتها كما يفعل الأزواج!
- ان زوجتي قليلة الأدب، كيف تريد هذا الشيء؟ هل تحب أن اقوم بفضحها أمام الناس؟
- هي زوجتك ومن حقها عليك، ان تحسن معاملتها وان كنت لا تريدها زوجة، فعليك تسريحها بالإحسان، انت تقوم بسجنها في

منزلك! وتحرمها من حقوقها الزوجية!

يخرج شقيق سميرة ويغضب زوجك مما سمعه، يأتيك مهددا:

- كيف ابحت لنفسك ان تفشي أسرارنا؟ انت تعرفين انني مريض! لن اطلقك، وسوف يرى من يدافع عنك اي مصير ينتظره! هذه السميرة صديقتك ألم يكفها ما حل بأبيها الكافر؟ فأرسلت اخاها ليكون محاميا عنك؟ ألم نحسن اليك؟ حين أويناك الى منزلنا وقد ابعد جميع افراد أسرتك الى خارج حدود الوطن؟ لن تخرجي من هنا! ولن يراك رجل غيري! ستموتين هنا وسوف يلحق محاميك بأبيه الغائب من اعوام! اصمتي والويل لك ان فتحت فاك! سوف نجعلك تلاقين مصير اسرتك! عندنا المال والسلطة ونقوم بما نشاء، الويل لكم ايها الرعاع المارقون ... ألا تعرفون من نحن؟ ألم تدركوا بعد الفروق بيننا وبينكم حتى تجادلوننا؟ اذهبوا الى الجحيم مع من يسعى لإنصافكم! انت زوجتي التي أكرمتها، لن ينجح محاميك في مراده!

(٧٦)

تتوق سميرة لأخيها المتدين كريم، القي القبض عليه عددا من المرات، حين اطلق سراحه في الشهر الماضي اخبر كريم اخته سميرة:

- سألوني عنك كثيرا في التحقيق!
- ماذا سألوا؟
- قالوا ان اباك يساري عنيد واحدى بناته تأثرت به فهي

يسارية لا تهتم بما يقوله الناس!

- اختي انا تحترم الناس وتقدرهم كذلك ابي! علمنا والداي ضرورة ان احترم الناس ان كان رأيهم يخالف رأيي، وتعلمنا ايضا ان من لا يقدر الناس حق قدرهم لا يستحق احترامهم!

- هل تحاول ان تناقشني؟

- لا، بل لأخبرك اننا اسرة متآلفة رغم افكارنا المختلفة، الا ان كل فرد منا يتمتع باحترام اخوته!

- وانت ايضا يساري رغم مظهر المتدينين الذي تحاول ان تتشبث به!

- احب اختي واحب ابي ووالدتي وكل افراد أسرتي، وان كان ابي واختي يساريين فهما يحترمان الأديان ما دامت تدعو الى مكارم الأخلاق!

- هراء كل ما تقوله! اليساريون يبثون الفرقة بين الجماهير ويؤلبون الأفراد ضد المجتمع وتقاليده وعاداته! وأنت أيها التافه الذي يريد ان يناقشنا سوف ترى عاقبة عنادك وافكارك الهدامة!

يصمت كريم وتحترم سميرة اخاها، ولا تكثر عليه الأسئلة، يرى الاخ رغبتها في معرفة ما جرى معه، فيقول:

- استشاط المحقق غضبا مما سمع، والتفت الى اعضاء لجنة التحقيق قائلا:

- خذوا هذا الطفل وأروه كيف يجب أن يكون الرد على الكبار، لسنا يساريين مثل ابيه كي نسمح للناس ان يقولوا ما يمر في عقولهم النتنة! خذه واتركه وحيدا في غرفة مظلمة كي

يرعوي!

تسكت سميرة ويستعد اخوها لمغادرة منزل سميرة وامه واخته سهام، تسأله اخته الكبيرة:

- كيف اصبحت نجوى؟

- صارت طفلة جميلة غدا اذهب بها الى المدرسة الابتدائية النموذجية في منطقة سكنانا وأسجل نجوى في الصف الأول .

- سريعا تمر الأيام!

- الأيام السعيدة تمر سريعا ، والأيام الحزينة كل يوم اشعر به دهرا طويلا!

- أعانك الله يا اخي، عذبت كثيرا وعانيت طويلا!

- كل أفراد أسرتنا عانوا وتعرضوا للظلم!

- المعاناة تختلف انا اعتقلت مرة واحدة وعوقبت كثيرا ، وابي تعرض للظلم ولا نعرف مصيره ولم يسمح لنا بزيارته! وقد طلبنا الزيارة عددا من المرات!

- ابي ظلم كثيرا وحورب في عمله وكسدت تجارته، ولا ندري اين هو الآن، ورغم حرماننا من حنان ابي فانهم يسألون عنه! وكأنهم لا يعلمون انه يرزح في أقبية سجونهم!

- لنا الله اخي العزيز!

(٧٧)

تزور شقيقة عماد حسن سميرة في منزلها ، وتنقل لها الخبر الذي خشيت ان تسمعه:

- اخبرونا في القوات المسلحة ان عددا من الجنود والضباط قد أبيدوا من قبل العدو!

- وما اخبار عماد؟ ألم يتمتع بإجازة يقضيها مع افراد أسرته؟!

- عماد كان يحدثني بالعلاقة الجميلة التي ربطت بينكما ، ورغبتكما تتويجها بالزواج!

- نعم قال لي اننا سوف نعقد قراننا بعد عودته من واجب خدمة الوطن!

- والعودة طال امدها ، انتظرنا ان يأتينا عماد وتراه امي وابي، ولكن طال الانتظار!

- ماذا حدث؟ قلبي يؤلمني!

- استشهد عماد وهو يدافع عن ربوع العراق ...

- يا ويلتاه!

- كان يحبك كثيرا ، ويتطلع الى اليوم الذي تعيشان فيه معا!

- هل استلمتم جثمانه؟

- لا ، اخبرونا انهم تعرفوا عليه في الفرقة!

- كم عدد الذين استشهدوا معه؟

- لا ادري، أبلغنا انهم كثيرون، ولكن لا نعلم، الكارثة تحل بأرضنا!

- رحمك الله يا عماد ! كنت صديقا وحبيبا وفيا!
- احتفظت بمذكراته ورسائله والصور التي جمعتكما ، سوف آتيك بكل ما ترك من ذكريات!
- قدم لي خاتم الخطبة ووعدني بالزواج!
- يا لسوء حظكما! لم يكن عماد قد وفر شيئا للزواج!
- اتفقنا ان نتشارك نحن الاثنين في تأثيث منزلنا المشترك!
- ألهمك الله الصبر صديقتي العزيزة!
- البقاء في حياتك عزيزتي، فقدت أخا وصديقا ، سوف ارتدي السواد حدادا!
- ولكن لا احد يعرف انكما حبيبان! ابي وامي يعرفان انه سيتقدم لخطبتك، لا تدعي الناس يتحدثون عنك بالسوء، لا ترتدي الملابس السوداء!

تغادر شقيقة عماد والدموع تملأ مآقي سميرة، ولا تريد ان تغيثها بالنزول، تدخل الحمام وتغلق الباب عليها وتبدأ بالبكاء والصراخ، اي لعنة حلت بها ، ارتبطت برجلين آثر اولهما الرحيل بعيدا عن ارض الحروب والظلم، وبقي الثاني مدافعا عن تراب الوطن، فاستشهد ولم يسلم جثمانه الى ذويه! اي حياة بائسة كتبت عليك يا سميرة؟ وهل يمكنك ان تتحملي كل آيات الحرمان من الحنان والحب وانت ما زلت عذراء؟ من يبدد حزنك الكبير؟ ومن يمكنه ان يخفف معاناتك الثقيلة وانت وحدك في ارض تحكم على محبيها بالنفي في نواحي الدنيا او التعذيب في السجون!! او الحرمان من نعيم الحياة وجمالها اللذين يتمتع بهما

كل سكان الأوطان، الا انتم يا من قطنتم الفردوس فاستحال بظلمهم الى جحيم! اي حظ تعس كتب لك ايتها المحرومة من كل شيء؟ منذ طفولتك وانت تعانين، لا تقدرين ان تقولي كلمة قد تفسر بغير معناها فيحل عليك العذاب انت سميرة الباسمة الوجه، الباكية في الأعماق ولا يدري احد مدى الحزن الذي تخفيه في قلبها وعقلها المفجوعين! اصبري ايتها المخلوقة! وأغيثي اختك التي بدأ المرض يفترس شبابها! رغم ان التحليلات كشفت عن بعدها عن الامراض! اصبري ايتها المخلوقة واعيني امك التي بدأت اعراض كل الأمراض تستقر في جسدها! ألم تفارق امك زوجها الحبيب جبرا؟ كيف تظهرين علامات الحزن وانت تدركين ان امك حين ترى دموعك تموت رعبا، دعي الابتسامة مرسومة على وجهك الصبوح، فأختك الحبيبة قد يفترسها القلق ان وجدتك محرومة من السعادة، اضحكي يا صديقتي ودعي الضحكة تقضي على همومك! من يدريك؟ كل شيء يمكن ان يتبدد ان تسلحنا بالإرادة والتصميم! تناسي مصائبك الكثيرة واخفاقاتك التي لا تحصى! واظهري للحبيبتين المريضتين انك في حالة فرح ..

(٧٨)

زارت ام الدكتور صادق عبد الله ام سميرة بعد انقطاع طويل:

- عجبت لابنك كريم كيف يتدخل فيما لا يعنيه؟ ويقف ضد خاله في ادعاءات زوجته الغريبة؟

- لم افهم! ماذا تقصدين؟

- كنتنا الغريبة افترت على ابني تدعي انه ظلمها!
- تقصدين كنتك التي هي ابنة أخيك؟
- هي التي أكرمناها وآويناها الى منزلنا!
- لكنها ابنة أخيك!
- وقفت مع الأعداء ضد ابني الذي تزوجها وأنقذها من التهجير!
- وما شأن ابني كريم بكل هذه الأمور؟
- سليه! كيف يمكنه ان ينصر الغريبة المدعية على خاله؟ آلم تربيه على وجوب احترام الأهل والأقارب؟
- ابنائي أعلمهم مكارم الأخلاق، ولم يتجاوزوا حدودهم يوما!
- أبناؤك كلهم يشبهون سميرة في افتراءاتها وادعاءاتها!
- دعي سميرة، يكفيها ما حل بها من ظلم الزمان!
- الزمان ظلمها بسبب سوء تصرفها، ولم نذنب نحن بحقها!
- لا نريد الآن ان نتذكر الماضي وما حل بنا!
- لم يجر لكم الا نتيجة ما اقترفتموه بأيديكم!
- وماذا اقترف ابني كريم؟
- وقف مع الغريبة ضد خاله!
- كيف وقف؟
- قالت انه ظلمها ولم يعاملها معاملة الزوجة فصدق مزاعمها!
- وماذا جرى؟
- جاء ينصح ابني ويتدخل فيا لا حق له بالتدخل فيه!

- لجأت كنتك الى ابني فأراد انصافها ونصح زوجها! الدين معاملة يا زوجة أبي!

- وهذا التدخل من جانب ابنك كريم سوف يكلفه غاليا!

- هل تهددين؟

- افهمي الذي تفهمينه! أسأتم الينا بما يكفي!

- ابني حاول القيام بواجبه!

- شؤوننا الخاصة منطقة محرمة لا يجوز ان تحشروا أنوفكم فيها، وقد اخبرتك وقد اعذر من أنذر! اولادي أحرار فيما يفعلون، وأنتم احرار ايضا ولكن لا تحاولوا المس بحياتنا!

- لم نسيء لكم!

- ابعدي ابنك عنا ! انصحيه ألا يتدخل فيما لا يعنيه، لئلا يلقى ما لا يرضيه! وخاله حر فيما يقوم به!

تقوم السيدة ام الدكتور صادق بمغادرة المنزل دون ان تشرب الشاي الذي قدموه لها! يسمعون صوت الباب يغلق بعنف!

(٧٩)

يا لسوء حظك! ما ان اخبرت صديقتك سميرة بشدة معاناتك وضخامة متاعبك، حتى سدت امامك النوافذ ومنع عنك التنفس، وان كانوا يستطيعون ان يحرموك من ذهابك الى العمل والتمتع بصحبة الصديقات والأصدقاء الذين تجدين راحتك بجانبهم، لو كانوا يقدرون ان يحرموك من النعمة الوحيدة التي وهبها الله لك، لما ترددوا، كيف يحرمون انفسهم من الثروة التي يجنونها

منك، وكيف يواصلون السطو على راتبك الكبير؟ ان منعوك من نعمة العمل؟ فأنت ماهرة في عملك، تتمتعين باحترام رئيسك وزملائك لتفانيك في العمل واخلاصك فيه، ما ان تعودي الى البيت حتى يسيطر عليك انقباض شديد للنفس وضيق في الصدر وعدم القدرة على التنفس، تذهب عنك القدرة وتولي هاربة منهم عزيمتك، يحرمونك من الطعام الذي طبخته لهم ويتركون لك لقيمات قليلة يعرفون انها ستقيك مؤقتا من مرض خطير قد يودي بك، يعملون بتصميم على جعلك تقنطين من الحياة ويستبد بك السأم وتشعرين ان لا شيء يجدي، تلومك عمتك باستمرار:

- نحن اكرمناك وانت العاقة لم تقدري كرمنا فهاجمتنا مع المخلوقة التي تكرهنا!
- لا اعرف احدا يكرهكم!
- وسميرة الحاقدة التي ورثت حقد العالم كله من ابيها!
- أبوها ليس معها!
- لقد نال جزاء سمه!
- وماذا جنيت انا؟
- تفترين ضدنا امام صديقتك سميرة، تصدقك هي وتحدث اخاها! أليس ما قمت به ذنب كبير يجدر بنا أن نعاقبكم عليه؟ ولكننا لم نفعل! ولم نحرمك من العمل ـ وبقينا على اكرامنا لك، واحتفائنا بك!
- وماذا فعلت سميرة؟
- صدقت أكاذيبك! وحدثت اخاها عنك! فلعب دور الناصح!

- وماذا فعل الأستاذ كريم اكثر من الكلام؟
- وماذا كنت تتوقعين؟
- لم اعد أتوقع شيئا في ظل هذا النعيم الذي احيا في كنفه!
- هل تسخرين حضرتك؟
- عفوا وهل يمكن لمثلكم ان يسخر منهم؟
- اخرسي ايتها المخبولة! هل اقترفت ذنبا حين سمحت لك ان تجادليني؟

تصمتين وانت مدركة انه لا جدوى من الكلام، وتشعرين بالإثم انك حدثت سميرة بمتاعبك، فرغبت صديقتك بمساعدتك ....

حدثت اخاها كريم بما تعانينه في منزل انت فيه ميتة، فكان حديثك وبالا عليك وبدلا ان تخف همومك ويحاولون ان يزيلوا ما تشعرين به من غبن، فانهم ازدادوا شراسة وظلما واخذوا يهاجمونك ويسيئون الى كل من تجدينهم يقفون معك في بلواك، سميرة صديقتك الوحيدة التي كانت تستطيع زيارتك منعوها من صداقتك والاستماع اليك، ولا تدرين ماذا قال لهم الأستاذ كريم الذي سمعت انه اختفى ولا يعلم احد الى اين ذهب؟

(٨٠)

اخي كريم يطول غيابه، منذ ان اطلق سراحه قبل أيام زارنا واطمأن على ابنته ÷، وقد حدثته عن متاعب صديقتي مع زوجها وعمتها اللذين يهينانها ويسرقان جهودها ولا يعاملانها كما يجب

لأي انسان ان يجد المحبة والتقدير، استنكر اخي كريم ما تعانيه المرأة المظلومة في بيت زوجها، وقال ان ديننا الحنيف لا يسمح بهذا الظلم وانه يدعو الى احسان المعاملة مع الناس، فهل ارتكبت خطأ حين اخبرت اخي؟ لا ادري ضميري يحاسبني انني ما ان وجدت اخي الحبيب مطلق السراح، لم انتظر بعض الوقت كي يسترد عافيته، بل سرعان ما اخبرته بمعاناة صديقتي وسوء حالها وجهودها التي لا تجد من يقدرها، حبيبتي ابنة اخي كريم تشتاق الى ابيها العزيز، تقول انها وجدت الراحة اخيرا بعد ان عاد ابوها، واستغربت من قولها، كيف عرفت طفلة صغيرة ما معنى الراحة؟ وكيف ادركت ان الحرمان من حضن الأب يحرم الانسان من العيش الهانيء وخاصة ان كان طفلا، يحتاج الى ان ينعم بالمحبة، الأفكار السوداء تقلقني، كيف اعرف ماذا حصل لأخي؟ لم اكن اتوقع ان العقاب سوف يكون بهذه السرعة، ذهب اخي ينصح خاله بضرورة تحسين معاملة زوجته، واذا به لا يعود ابدا! اعرف ان خالي حاقد وان امه لا تتحمل كلمة واحدة قد تنتقد ابناءها، وانها تظن ان اولادها خير الناس أجمعين، ولكني لم اكن ادري ان عقابهم بهذه السرعة المؤلمة فهل ان مخاوفي حقيقة؟ وهل ان خالي واسرته قد ساهمت في ابعاد اخي العزيز عني وعن امي وابنته وزوجته؟ امي تعاتبني لماذا تحدثت بمتاعب صديقتي لأخي وانا اعرف انه لا يسكت ان رأى احدا بعيدا عن الحق؟ ولماذا لم انتظر قليلا حتى يجد بعض الراحة في ظلال الحرية التي هلت عليه اخيرا بعد طول اعتقال؟ لا ادري ماذا حل بالعالم، متاعبي

كثيرة، لا اعرف كيف اكتمها عن أعزائي الذين اسعى الى ان يشاركوني اياها، ويقدموا لي بعض العزاء ان دنيانا هذه ما زالت بخير، وان انساننا الطيب ما زال موجودا بيننا، ولكن غياب اخي يحزنني كثيرا، هل حققت زوجة جدي ما كانت تهدد به؟ بالإضافة الى احزاني بشأن اخي، فان اختي سهام تشتكي من وجود الورم في صدرها، فلماذا لم يختفي كما اخبرونا في المستشفى؟ ولماذا لم يعطونا الدواء المعالج لحالتها؟ سوف اصحبها الى طبيب خصوصي بدلا من المستشفى العام! اذ ان المستشفيات في بلادنا لم تعد تقدم لنا الصحة كما كانت، تأخر كل شيء في بلادنا الحبيبة، اسارع الى اصطحاب سهام الى طبيب مختص بالأورام، يكشف الطبيب بالأشعة على صدرها ويقول:

- انتظروا ساعة!

بعد مرور الساعة يخبرنا الطبيب:

- ورم خبيث في الصدر! لماذا تأخرتم كثيرا في علاج الحالة؟
- اخبرونا في المستشفى انه ورم حميد!
- كان التشخيص خاطئا! وكان عليكم الا تثقوا بطبيب واحد!
- وكيف نعرف ان طبيبنا غير موثوق بتشخيصه؟
- الطبيب حسن في المستشفى الذي استعنتم به اخطأ في التشخيص مرات عديدة؟
- وماذا سنفعل دكتور؟ ما هو العلاج؟
- لابد من اجراء عملية جراحية! ومعالجة الورم قبل استفحاله!

(٨١)

بقيت سميرة تحن الى ان تكون اما ، ولكن كيف يمكنها تحقيق املها الكبير دون ان تحب رجلا؟ احبها رجلان، الأول هاجر فرارا من الدكتاتورية والعذاب الدائم، والثاني استشهد في ميدان الوغى، حيث الحروب العبثية ضد الجيران لإشباع نزوات المستبدين، هل بإمكان سميرة ان تحب رجلا ثالثا؟ وهي ترى ان القلب قد اغلق ولم تعد تملك القدرة على تحمل عذابات الحب وويلاته! يكفيها ما ذاقت من الحرمان، لم تجد من تثق به لتحدثه عن الأمل الوحيد الذي بقي يداعب نفسها المحرومة من كل دفء، حول الحكم الدكتاتوري العراق الى سجن كبير، لا يستطيع احد من اهله ان يعبر عن أوجاعه، لئلا تطاله يد العذاب ويودع في السجن، تخشى سميرة ان تغادر منزلها حيث الأم الحنونة والاخت المحتاجة للعطف، لهذا تصمت ولا تنطق بكلمة يفهم منها معنى لا تريد ان تعبر عنه، مضت الأيام وجاءتها الصديقة الوفية التي بقيت بجانبها تساندها في ظل الحرمان وسيول الدماء الجارفة التي تجري كل يوم، قالت صديقتها شذى:

- جارنا الأستاذ سالم انسان محترم ويحلم ان يكون ابا! ولكن زوجته لم تستطع تحقيق هذا الحلم!

- لم أفهم! ماذا تقصدين؟

- قصدي واضح يا صديقتي، استاذ سالم متزوج من امرأة متعلمة وهي ربة بيت ممتازة لكنها عاقر!

- كيف عرفتم انها عاقر؟ هل تم فحصها؟ وهل فحص الأستاذ سالم نفسه؟

- هي فحصت وقال الأطباء انها غير قادرة على الانجاب!

- والأستاذ سالم؟

- مادامت هي غير قادرة فلا يمكن ان يكون الاثنان غير قادرين!

- والمعنى؟

- يريد الاستاذ سالم ان يتقدم لخطبتك لما عرفه من معارفك والأصدقاء عن اخلاقك الطيبة وسمعتك الجميلة واخلاصك لأسرتك وعملك!

- انت تعرفينني! هل يمكن ان اتزوج رجلا دون ان يحبني؟

- ان لم تحصلي على الحب! احصلي على التقدير والاحترام! ستنجبين طفلا وتكونين اما! الا تحبين ان تكوني اما؟

- احب ذلك! وهل توجد امرأة لا تحب ان تصبح اما؟

- اقبلي الاستاذ سالم فهو انسان محترم وجدير ان يكون زوجا حريصا على اسعاد اسرته وزوجته!

- لا ادري! اعطوني فترة لأفكر!

- لا وقت للتفكير حبيبتي! تزوجي قبل ان يدركك سن اليأس وحققي حلما وحيدا من احلامك التي اعتقد انها كانت كثيرة يا صديقتي!

- حسن .. ليأتي الاستاذ سالم ويطلبني من الوالدة! لكن لي طلبا!

- ما طلبك؟
- اريد ان ابقى مع والدتي واختي فليس لهما من يعتني بهما غيري!
- بل اطلبي ان يكون لك بيتك الخاص بك مهرا لك، الاستاذ سالم قادر على ان يعيل امرأتين ويصرف على بيتين!
- ووالدتي واختي؟
- رحبي بهما في بيتك!
- اخبريه اني موافقة!

(٨٢)

يزور سميرة احد أصدقاء اخيها كريم، وكان معتقلا معه في معتقل واحد، اخبر الصديق سميرة ان اخاها تعرض لتعذيب رهيب آمرين اياه ان ينقل لهم المعلومات التي يعرفها عن اصدقائه، لكنه أبى ان يطيعهم، رافضا ان يخون الامانة والثقة التي حملها وقتا طويلا وصانها وتحمل الأذى والبعد عن الأحباب من اجل ان يبقى أمينا، ولا يفشي الأسرار التي ائتمنه عليها الأصدقاء، حدث الضيف سميرة عن البطولات العظيمة التي يقوم بها المعتقلون متحدين التعذيب وكل أنواع الحرمان مصرين على ان يصمدوا امام الطغاة والا يدعوا الخونة الأنذال ينالون من صمودهم، سالت سميرة:

- واين اخي؟ ألم يفرج عنه ليخرج من المعتقل وينال الحرية التي حرم منها؟

- حوكم اخاك ولم يبق معتقلا!

- وكم حكم عليه؟

- اربع سنوات مع الشغل، اعترف عليه احد الزملاء الذين لم يستطيعوا الصبر على التعذيب! فوقع على ورقة يريدونها منه ...

- وماذا كان في الورقة؟

- الزميل المعترف لم يدر ماذا في الورقة التي امروه ان يوقع عليها!

- وكيف وقع عليها وهو لا يعلم ما فيها؟

- كان الزميل معصوب العينين، ربطوه بالمروحة السقفية وقالوا له:

- سوف نأتي بزوجتك وابنتك ونعلقهما معك هنا ان لم توقع على هذه الورقة!

سألهم:

- ماذا في الورقة؟

- ليس ما فيها من شأنك! وقع وسوف تسلم انت وأسرتك من التعذيب!

- سأوقع على ما تريدون!

يواصل الضيف حديثه:

- امسك المحققون بيد الزميل المعترف وجعلوها تمسك بالقلم، ومرروها على الورقة التي كتبت فيها اسماء بعض من يريدون الايقاع بهم!

- وكان اخي ضمن تلك الأسماء؟

- نعم، اشخاص كثيرون بعضهم لم يكن يعرف ما السياسة اطباء ومحامون واساتذة استطاعوا ان يعتقلوهم ويهددوهم بواسطة تلك الورقة التي اجبروا الزميل المعترف واثنين آخرين على توقيعها!

- لكن هذا لا يعتبر اعترافا!

- نعم هو ليس اعترافا! لأن من يوقع على الورقة لم يعلم ما فيها! كما انه كان تحت التعذيب والتهديد ان أسرته ايضا سوف تلقى العذاب نفسه!

- وأخي؟ اين هو الآن؟

- لا علم لي! كل الذين حوكموا لم نعد نسمع بأخبارهم!

- هل من الممكن ان يطلق سراحه قريبا؟

- لا أدري اختي الكريمة!

- وهل يسمحون لي بزيارته؟

- ليس السماح بالزيارة متوقعا!

- هل اقدم طلبا بالزيارة؟

- ليس الآن! اصبري، وسوف اخبرك بالوقت المناسب ....لقد اطلق سراح اخيك لكنه لم يسر كما يريدون له، فقام كعادته بالدفاع عن المظلومين!

- كيف دافع عمن يتعرض للظلم؟ لم يستطع ان يفعل شيئا! كلمات قالها من اجل النصيحة فأدت الى عودته مرة اخرى الى غياهب السجون!

- كانت المرات السابقة اعتقالا، يظل المعتقل محروما من الحرية وقت ما يشاء المتنفذون!

- وهل تختلف السجون عن المعتقلات؟

- كلها في الهم سواء! لا احد يستطيع الكلام! ولا احد يمكن ان يتدخل لنجدة من يحاولون الايقاع به وجعله يعترف بأمور لا يعرف بها!

(٨٣)

تكدحين طوال اليوم، ليلا ونهارا وانت كالنحلة تتنقلين بين احزان البيت الكئيب وافراح العمل القليلة، حيث تنعمين بالصحبة الجميلة والزمالة التي تسعد روحك التي اتعسها الصبر المر واليأس من تبدل الحال الى افضل، تستيقظين فجرا لتقومي بما يتطلبه المنزل من مهام، تفاجئين ان المدعو زوجك ابن عمتك الذي كان يعزف اقبح الألحان بصوت شخيره! الصوت غير موجود، وعليك ان تعملي بصمت لئلا يستيقظ فتنهال عليك الاتهامات وتسلب منك قدرتك على الهدوء لاستقبال يوم جديد، تدخلين المطبخ وانت تتهيئين لتجهيز طعام الافطار، وخشيتك ان تتهمي انك لم تحسني تهيئة ما يريدون تتضخم، فالشاي قد برد، حاولت ان تثيري انتباه من يتهمك دائما:

- علي ان اخرج من المنزل مبكرة، التأخير يجعلهم يخصمون لي راتبي!

- وكيف يفعلون ذلك؟ الا يدركون من هو زوجك؟

- في العمل لا فروق بين الناس، انهم لا يميزون! المهم عندهم جودة العمل!

- عليهم ان يميزوا! فالناس ليسوا سواء، زوجة المسؤول ليست مثل زوجة العامل البسيط!

هذه المجادلات تحدث كل يوم، تسرق منك الشعور بالراحة الذي تودين الاحتفاظ به كي تعملي بكل الجهد المطلوب، هذا الصباح تجدين البيت هادئا، المسمى زوجك لا صوت لشخيره المعتاد وعمتك لم تستيقظ بعد، لتتالك سهام اتهاماتها، صوتها كالسوط ينهال على روحك التي أتعبها كثرة التطلع الى حالة لم تعودي تحلمين بها، ،

وانت في المطبخ تسمعين صرخة عمتك:

- الله اكبر! اين ولدي؟ ماذا فعلت له ايتها الظالمة؟

تهرعين الى غرفتك حيث الزوج الذي لم يعد يتحرك:

- ماذا جرى عمتي؟
- زوجك لا يتحرك!
- ربما هو نائم! ما زال الوقت مبكرا على استيقاظه!
- انه لا يتحرك! ناديت عليه فلم يجبني!
- نادي مرة اخرى!
- الا تعرفين ايتها اللعينة؟ زوجك لا يتنفس!
- وماذا يعني هذا؟
- لم يتحمل ظلمك، فرحل!
- وما ذنبي انا؟ ان رحل عن الدنيا فهذه مشيئة الله!
- اخرسي ايتها الموبوءة! انت جنيت عليه! ألم تشتكي؟ وتجعلي الظالمين يتدخلون في حياتنا؟

- وماذا جنيت أنا؟وهل كلماتي ادت الى موت ابنك؟

- نعم، الا تعرفين انه مرهف الشعور، وكيف يمكن ان تعرفي؟

- انا مظلومة يا عمتي؟

- اخرسي، هل تعودين الى النغمة اللعينة؟ تعبنا من عويلك!لم يعد لك مكان في منزلنا بعد رحيل ولدي!

- لماذا يا عمتي؟ وانا ابنة اخيك!

- لم تحافظي على هذه القرابة حين شكوت زوجك الى كريم!

- كريم لم يفعل شيئا!

- هل تتقاشينني ايتها اللعينة! ولدي مات وانت تتجادلين! هيا اغربي عن وجهي!

- اين اذهب وهذا منزلي؟

- ليس هنا منزلك! اخرجي من هنا، واذهبي الى اي مكان، عشاقك كثيرون وقد تسببت في موت ولدي بالجلطة القلبية!

يصمت كل شيء فيك! لم تعودي قادرة على القيام بأي شيء، الرجل الذي ظلمك وهجرك طويلا، نسيت هذه اللحظة كل الجراحات التي سببها لك، لم تنزل دموعك التي جففها طول العذاب ودعوت الله ان يغفر له ويرحمه فهو ابن عمتك! صديقتك الوحيدة تحبك وسوف تهرعين اليها!

(٨٤)

تستقبل سميرة قريبتها المتوفى زوجها، المطرودة من منزلها، لأنها حدثت صديقتها الوحيدة بمتاعبها، وانها زوجة بدون حقوق الزوجات، زوجها يهملها ولا يبالي بمشاعرها وانها تكدح طوال الليل والنهار دون ان تسمع كلمة واحدة تدل على التقدير والاحترام ينتظرون نهاية كل شهر كي يسطوا على تعبها المتواصل وكفاحها الطويل، طردتها عمتها من منزل الزوجية وهي لا تظهر اكتراثا للجهة التي ستتوجه اليها وهي اليتيمة التي مات ابوها واعتقل اخوتها بتهمة التبعية، ترحب سميرة بالمرأة المنبوذة، وتخبرها انها عادت الى منزلها حيث الحب والدفء، بعد ان تستعيد الضيفة انفاسها تستفسر عما حل للأخ كريم:

- لا ادري، قبضوا عليه وهو بصحبة ابنته الطفلة، كان يرافقها الى الروضة!

- وهل قبض عليه بسببي؟

- لا .. لم تكوني انت السبب! بل لأنه كان يقض مضاجعهم لأنه لا يحسن الصمت!

- وقصتي كانت السبب المباشر!

- عمتك قالت هذا ولكن شقيقي كريم كان شجاعا ذا مواقف ثابتة في مناصرة المظلومين، والسلطة لا تريد ان يتمتع العراقي بالشجاعة والمروءة، فعملت على الايقاع به وتم لها ذلك، والدكتاتورية لا تهتم ان كان هناك سبب للاعتقال ام لم يكن،

و تسعى ان يكون كل من لا يحب الظلم في السجون والمعتقلات!

- كلنا معتقلون!

- نحن في منازلنا ويجري التنصت لما نقوله فكيف لمن كان داخل السجن ان يصبر على الاذى والتعذيب!

- بقيت طوال الوقت اشعر بتأنيب الضمير، لأنني حدثتك بمتاعبي!

- ولم يستطع اخي ان يفعل شيئا من اجلك! ولكن الظالم الصغير قد رحل عن الحياة ولم يشفع له قربه من المسؤولين الكبار ان يكون خالدا، البقاء في حياتك عزيزتي، سوف تشعرين ان جبالا من الهموم قد انزاحت عنك!

- لم يكن ابن عمتي مسؤولا عن الظلم الذي اصابني، فقد كان مريضا!

- ولكن اسرته عرفت بمرضه ولم تعمل لطلاقكما، بل استمرت معاناتك، واجد ان عمل المرأة وحصولها على راتب شهري قد يكون وبالا عليها!

- اكثر الأحايين يكون عمل المرأة خارج المنزل سببا في اضطهادها، اذ يعمل بعض الأزواج على سرقة ثمرة تعبها ومجهودها، ويحرمون الزوجة العاملة من كل حق لها في صرف راتبها كما ترغب هي ومساعدة لأسرتها واولادها وليس خدمة للزوج المستبد فقط ..

- اعرف الكثير من الزوجات العاملات كن يتمنين ان يكن بلا عمل حتى لا يتمكن الزوج من استغلال الراتب في مصلحته

الشخصية!

- اغلب العاملات لو كن بلا عمل لما تقدم لهن احد ولقضين حياتهن بلا زواج، اكثر الرجال يفضلون الزوجة العاملة التي تتمتع براتب جيد، ليجبرها على انفاقه خدمة له!

- ترحب الزوجة بمساعدة الزوج ان كان راتبه لا يساعده في توفير ما تريده الاسرة من ضرورات ..

- ولكن الرجل قد لا تعرف دوافعه قبل ان تتم معاشرته!

- وماذا تفعل المرأة؟ ومن تلك التي تعرف دوافع الرجل الحقيقية وما يدعيه الرجل من حب وعشق وهيام دفعه الى التضحية بالحرية من اجل سواد عين المرأة ..

- يجب على المرأة ان تدرك ان الرجال لا يحبون كما تحب النساء!

(٨٥)

اشتاقت ام سميرة لرؤية ابيها، فقد مضت فترة طويلة على اخر مرة شاهدته فيها، طلبت من ابنتها سهام ان ترافقها بالزيارة اعتذرت الابنة عن الذهاب مع امها لأنها كانت تريد مراجعة الطبيب، اقترحت سميرة ان ترافق امها الى بيت ابيها وتعود الى منزلها، فهي لم تجد ما يفرحها في زيارتها الاخيرة لبيت جدها، الذي رأته مريضا متعبا يئن من الأوجاع دون ان يجد من يستمع الى شكواه ويخفف من الآلام التي يعاني منها، فقد تراجعت صحة الشيخ المسكين حين اجبره أولاده على كتابة جميع املاكه باسم ابنه الكبير الذي يشغل مسؤولية كبيرة في الدولة، تعرف سميرة

جيدا انها لا تجد الترحيب في ذلك المنزل الذي كان كبيرا في عهد مضى، لكنه تحول بفعل الاهمال الى خرابة تنعق بها الغربان نذير الشؤم الذي حل به وقد كان عامرا بالمحبة والوئام، شاهدت سميرة جدها العاجز وقد نقلوه من غرفته التي عمل على فرشها بجديد الفراش الى غرفة اخرى مهجورة تحولت الى قن للدجاج، لم تستطع سميرة ان تبدي استغرابها من التحول الكبير والتراجع المؤلم الذي لحق بجدها الشيخ الذي لم يكن طاعنا بالسن، انما افترست جسده المتعب العديد من الأمراض حيث لم يجد احدا يعمل على معالجته او تخفيف وطء المرض عنه، اولاده يبخلون عليه بالمحبة، وزوجته تعمل على جعله يشعر بألم مضاعف ..

اوصلت سميرة امها الى باب المنزل وقالت:

- عذرا امي لا أستطيع الدخول!
- اعرف يا ابنتي
- هل تكفيك ساعة؟
- نعم تكفي، هل تعودين لاصطحابي بعد ساعة؟
- نعم يا امي

تدق ام سميرة الباب ويطول انتظارها علهم يفتحون لها الباب، ويعد مضي فترة خالتها دهرا تجد امامها شخصا لا تعرفه:

- نعم؟ من انت؟ وماذا تريدين؟
- انا ابنة الرجل الكبير في هذا المنزل!
- لا اعرف احدا من الرجال الكبار هنا، ولكن تفضلي!

تشير المرأة الغريبة الى احدى الغرف لتدخل اليها ام سميرة،

يستولي العجب على ام سميرة التي تجد الغرفة قد تحولت الى زريبة للخراف والبقر، والدجاج يتقافز فيها ،لا تجد في الغرفة ما يمكن ان تجلس عليه، فتظل واقفة مع ان الوقوف ممنوع عليها فهو يضر بساقيها وقدميها المصابتين بالآلام المفاصل، تسمع ام سميرة صوت زوجة ابيها متسائلا:

- من دق الباب؟
- امرأة عجوز تقول انها ابنة الرجل الكبير!
- واين هي؟
- في الزريبة!
- هذه المرأة لا مكان لها هنا! هيا اخبريها بان عليها ان تغادر!
- تريد ان ترى الشيخ الكبير!
- ولماذا تريد ان تراه؟ هو بخير يتمتع بعنايتنا مادام بعيدا عن الاسرة المشاغبة اللعينة! قودي المرأة العجوز الى الغرفة التي اوت شيخها الكبير!
- ادخلتها الى عرفته!

تقول المرأة الغريبة لأم سميرة:

- هل هذا هو ابوك؟

تعجب ام سميرة مما حل بابيها:

- السلام عليكم يا ابي؟
- السلام عليكم يا ابي! اشتقت اليك فجئت!

الشيخ لا يتكلم وادركت ام سميرة انه لا يسمع ايضا ولا يرى، ومجموعة من الدجاج تسير بهدوء على جسده المدد على فراش قذر

علـى الأرض، لم تسـتطع ام سمـيرة ان تمسـك نفسـها، فتسـاقطت دموعها رغما عنها، خرجت من المنزل وصوت زوجة ابيها يلاحقها:

- كم مرة نخبركم اننا لا نريدكم ان تـأتوا الى منزلنـا! نحـن بخير ما دمتم بعيدينّ! كل المصائب تحل علينا بسببكم!

(٨٦)

تغيرت حياتك الى النقيض بعد ان طردتك عمتك من منزل ولدها المسؤول الكبير، لجأت الى صديقتك العزيزة سميرة، رحبت بك واتخذتك اختا ثانية بجانب شفيفتها سهام، وعشتن انتن الاربع نساء في وئام وتفاهم، لم تعتادي هذا النوع من الحياة، تشتركين معهم في اشغال المنزل، ويمنحونك حبهم وعطفهم، محاولين ان ينسوك الجراح التي اصابت قلبك وروحك، ظننت ان حياتك توقفت، وان لا امل لك في تغيير نمط العيش، كنت في بؤس مقيم، اذاقوك في منزل عمتك العلقم، جعلوك تواصلين خدمتهم دون امل في سماع كلمة تدل على انك من البشر، تحتاجين الى من يقف بجانبك، حتى راتبك الذي تتقاضينه اخر كل شهر نتيجة تعبك في العمل وشدة اخلاصك فيه، كانوا يسلبونه منك، نسيت انك امرأة بحاجة الى الحب، ابن عمتك لم يكن يبالي بك، ما ان يضع رأسه على فراشه حتى يتعالى شخيره، دعوت الله ان ينقذك من براثن المخلوقات الغريبة التي لم تستطع ان تجعلك تنسين الحياة السعيدة التي عشتها في منزل والدك الحنون العطوف رغم فقره، وشدة احتياجه، علمك ابوك ان المال وسيلة للعيش وليس غاية، وان الذين

يكدسون اموالهم ولا ينفقونها من اجل تحسين ظروف الحياة، لا يستحقون ان يعتبروا من البشر، وان صفة الانسانية لا تطلق على كل مخلوق مهما بلغت منزلته، ان لم يتصف بالحنان ويكون محبا لإخوته في الانسانية، تذكرت الدروس التي تعلمتها من والديك واخوتك الذين لم يبق معك منهم احد، هجّر ابوك وماتت امك ولم تتحمل فراق الأحباب وسجن اخوتك، في بيت سميرة استعدت الحياة التي سلبت منك، الاسرة المحبة الغالية قد منحتك حبها وحنانها، عرفتك سميرة الى احد زملائها في العمل، الأستاذ سامي الذي ماتت زوجته بفعل مرض خطير وتركته وحيدا، اتخذ الاستاذ سامي منك صديقة يحدثها عن متاعبه ويستمع اليها وهي تخبره عن المصاعب التي عاشتها ونوع الحياة القاسي الذي فرض عليها في منزل عمتها، استعدت عافيتك النفسية والجسدية، أيقنت ان الناس ليسوا متساويين في التفكير والسلوك، وان كنت قد جربت القسوة الطاغية، فان هناك قلوبا لا تعرف الا الرحمة.

لم يعد يومك شاقا والأشغال فيه لا تنتهي والمعاناة طويلة، في بيت سميرة تغير كل شيء انت ابنتهم العزيزة والجميع يحبونك،

سميرة التي تعيش في منزلها الذي قدمه لها زوجها مهرا تكن كل الحب لكل من يشاركها الحياة، لقد عاشت الحرمان زمنا طويلا وها ان الزمن اخذ يذيقها السعادة مع زوجها وامها واختيها، ، لم تنس اباها ولا شقيقها كريم، لم تجعلها الذكريات التعيسة التي مرت بها، تفقد الأمل، أدركت سميرة ان اليأس لا يعيد لها الاحباب الذين ابتعدوا مضطرين، ولم يختاروا

يوما ان يبتعدوا عن الأشخاص الذين يحبون ..

زوج سميرة الانسان الطيب والتاجر الصغير عرف كيف يكسب قلب سميرة، و يحظى باحترام امها واختها، وها انت تنالين التقدير والاحترام من كل من يعيش في هذا البيت الكبير .. وانت الانسانة التي جربت الحياة الصعبة ونالت السعادة بعد صبرها الطويل!بقي حلم كبير يداعب روحك، فهل يتحقق املك في ان تكوني اما؟ وهل سترزقين بطفل بعد ان اوشك الامل ان يبتعد عنك، ومن اين لك بالرجل الذي يحقق لك ما تأملين به، انت معجبة بالأستاذ سامي، ولقد لاحظت انه يبادلك الاعجاب، فهل يتقدم نحوك بالخطوة التي تترقبينها؟

(٨٧)

تخبر الجارة ام سميرة ان اباها ليس في حال تسر احدا، فهو شبه مسجون في زريبة الحيوانات، لا يتكلم مع احد، لأنه فقد قدرة الاهتمام بهذا العالم، وانه لا يسمع ولا يرى، اخذت حواسه الخمس تضعف، ولم تجد من يعالجها ويهتم بها، فتضاءلت، وبدأت بالاختفاء بمرور الأيام ..

- زرته قبل أيام ووجدته في حال بائس جعل الدموع تنهمر من عيني دون ارادة مني!

- لماذا تسجنه اسرته؟ وما الأسباب التي جعلت اولاده وزوجته لا يعيرونه الاهتمام الذي يستحقه؟

- لا ادري ربما كثرة التدليل تفسد الانسان وتجعله لا يبالي

بوالديه واخوته وكل القريبين منه!

- اعرف انه شيخ جليل لا يستحق ان يعيش منبوذا وهو وسط افراد الأسرة التي تعب في تنشئتها وتربيتها!

- ماذا نفعل للأيام؟ وكيف نعلم ان المرء لا يستحق اهتمامنا وعنايتنا قبل ان يكبر ويصبح شابا؟

- لقد تعب على اسرته وجمع ثروة كبيرة كان يجب ان يستفيدوا منها لمعالجته ورعايته ومعاملته بالمثل!

- اللئام لا يثمر معهم المعروف حتى وان كانوا اولادا وزوجة!

- كان الله في عونك! لم تستفيدي من الثروة التي جمعها، ولم يسمحوا لك بالبقاء في منزل ابيك!

- لم اكن محتاجة اليهم، وان كان حرصهم على ابتعادي عن ابي يحزنني كثيرا، الا انني لم اكن بحاجة الى نقودهم، زوجي وفر لي كل شيء، وحين غاب عني اخذت ابنتي سميرة ترعاني وتتكلف برعايتي والاهتمام بي!

- الا تعرفون ماذا جرى لزوجك الشهم النبيل؟

- حاولنا عددا من المرات ان نتمكن من زيارته وقدمنا طلبات لهذه الزيارة، ولكن خاب املنا!

- ولم يستجيبوا لطلباتكم؟

- ولا مرة واحدة!

- الشجعان ذوو المروءة والخصال الحميدة يتم اعتقالهم، والكاذبون المدعون يتم الاستجابة لما يريدون!

- لان الكاذبين معروفون انهم يبدلون جلودهم حسب

مصالحهم!

- وماذا ستفعلين بشأن أبيك؟

- سأحاول ان ازوره مرة اخرى، واحمل معي بعض الفواكه التي اعلم انهم لا يشترونها له ...

- تعب الرجل وعمل وتزوج وانجب الاولاد والبنات ولم يجد فائدة في كل ما قام به من جهود، الا ما أرخص الانسان!

- لا يستطيع أي مخلوق ان يرخص الانسان الغالي الا ان سمح لهم ذلك الشخص بجعله رخيصا ذليلا!

- ان كنت بحاجة للمساعدة فانا اقوم بتقديمها لك، اعرف ان زوجة ابيك سليطة اللسان ....لا تتورع عن القيام بأي عمل يبعدك عنها!

- ليتك تستطيعين مساعدتي!

- وكيف اساعدك؟

- لا اريد سوى رؤية ابي وجعله يرى بنفسه كيف ان ابنته تحبه رغم انهم ابعدوه عنها!

(٨٨)

سميرة المرأة التي اتعبتها السنون، واستوطنت قلبها الهموم، وأثخن جراحها الزمن، آن لها ان تستريح قليلا من العناء، وان تتنفس كما تريد وان تستمتع بالجمال الذي خلقه الله، منذ صباها وهي في سقم ومساءلة، يحملونها اثم ما لم تقم به، بدت اكبر من عمرها، وتفوقت على الكبيرات في مدرستها، واهتمت

باهتمامات الكبار فحوربت من كل الناس، كل الذين عرفتهم بالغوا في تفسير كلماتها، احبت مرتين، وفي المرة الأولى اضطر الحبيب الى مغادرة الوطن، قبل ان يقبض عليه ككل الشباب ويودع في السجن، وخطبها رجل ثان، كان يعشقها بكل قلبه المتيم، فذهب لأداء واجب الدفاع عن الوطن فمات شهيدا ولم يعد، في محاولتها لتذوق حب الرجل والتمتع بدفء أحضانه كان احسن مما نالته فيما مضى، من قصص موجعة تركت في قلبها جروحا ظنت انها لا يمكن ان تندمل، ارتبطت برجل حنون لم يمنحه اللّه طفلا كما كان يتمنى، عند زواجه الأول، سميرة التي وخطها الشيب ولم يزل قلبها شابا يتطلع الى جمال الحياة، ويأمل ان ينعم بكل الامور الجميلة التي وهبنا اللّه اياها من نعم، مناظر جميلة وصداقات نتعلم منها الاخلاص، استطاعت سميرة ان تحقق املها وامل زوجها الاستاذ عبد الحميد، فرزقها اللّه ولدا جميلا اكتسب جمال امه الشكلي وذكائها كما أودعه اللّه خصال ابيه الحميدة، جاء بعد انتظار طويل ولكن الامل في مجيئه لم يفارق الاب، كما ان الأم كثيرا ما كانت تبتهل الى اللّه الا يديم عليها المشقة، والا تقضي الحياة وحيدة لا تجد طعم السعادة، ورغم حبها لأمها الحنونة واختها المحبة، فقد رزقت العديد من الصداقات التي اثبتت تجارب الحياة انها ضرورية للإنسان كضرورة الماء للأحياء، استطاعت سميرة ان تنعم ببعض الراحة بعد زواجها من الاستاذ عبد الحميد، الذي قدم لها منزلا كبيرا وجميلا كمهر لها، سكنت فيه مع امها واختها ورحبت

فيه بصديقتها الارملة، كثيرا ما فكرت سميرة بالغائبين من احبابها الذين غيبوا قسرا، والدها الحبيب واستاذها في الحياة والذي علمها الكثير من الدروس والقيم قبل ان تنهل تلك المعارف من المدارس او الكتب، توصلت سميرة الى ان القدوة هي التي تعلم الانسان وتكسبه الشمائل الحسنة، وان كان الوالدان سيئين فأي حديث عن مكارم الاخلاق لن يفيد الابناء بشيء، سوف يكون الابن او البنت كما كان الاب والام معا، كان حظ سميرة حسنا، فان اللّه انعم عليها بوالدين حسنين، الاثنان معا يحرصان على الاخلاق الحميدة، ليس في الكلام فقط وانما في التصرف والسلوك، وكثيرا ما فكرت سميرة بأولئك الذين لم يحسنوا اختيار من يشاركهم رحلة الحياة، فوقع اختيار الرجل على امرأة لا تتمتع بالصفات الجميلة، ولا تبالي ان كان الابناء يتحلون بجميل الصفات او انهم لا يملكون منها شيئا وما أتعس المرأة التي ربيت احسن تربية من قبل ابويها، لكنها لم توفق في اختيار شريك الحياة، فكان حظها سيئا مع رجل لا يحسن من امور الدنيا شيئا وخاصة ان كان لا يملك عملا، فيترك امور الاقتصاد على عاتق الزوجة، التي تئن وترزح تحت اعباء لانهاية لها، فلا تعرف كيف تتصرف وهي ملزمة بتوفير حاجات المنزل وتعليم الاولاد وتربيتهم وغرس المباديء الجميلة في نفوسهم .. ماذا تفعل الأم ان كان زوجها قد جاء من معدن خبيث ويكون سلوكه سيئا، فيتخذه الاولاد اسوة ليست حسنة، فكرت سميرة بكل هذه الامور وحمدت اللّه انه منحها والدين صالحين واخوة يحبون بعضهم

الـبعض وصـديقات وفيـات وزوج يتحلـى بـالخلق الرفيـع، فعاشـت سميرة في كنفه مرتاحـة ترنـو الى السـعادة ولكـن مـا تشـعر بـه مـن رضـا عـن حياتهـا ليس كـافيـا، فأبوهـا واخوهـا مـا زالا غـائبين ولا تعلم عن امورهما شيئا! ماذا جرى لهما؟ وكيف هـي حالهمـا؟ وهـل سيعودان قريبـا؟ ام انهـا سـوف تـودع حياتهـا قبـل ان تكحـل العـين برؤية الاحباب؟

(٨٩)

كنـت لا تـؤمنين بحصـول الانقـلاب وهـا انـك تعيشـينه، مـلء روحك وبكل قوتك لتنالي نصيبك من السعادة، عشت محرومة من كل النعم، سنوات قليلة عشتها مع أبيك الفقير المعدم لكنـه قـدم لك المحبة كمـا يقـدمها كـثير من الآبـاء وكمـا تحـرص الامهـات علـى منحهـا لـلأولاد والبنـات، لا احـد مـن والـديك يميـز بـين ذكـر وانثى، لم تمهلك السنون لتنالي نصيبك من السـعادة، أبـى الطغـاة الا ان يذيقوا اسـرتك الهوان بحجة انهم تبعية، وانت تعلمين ان أباك يعيش في هذه البقعة الطاهرة من الأرض منذ مئات السـنين منـذ ان عاش اجداده هنا وذاقوا خيرات هذه البلاد وتنفسـوا هواءهـا العـذب وشربوا ماءها الحلو، اخوتك لم يكونوا مـن الحـزب الحـاكم، بـل اعتقدوا باليسار وانه قادر على تحويل بؤس الحياة الى نعيم، اذ انـه لا فـرق بـين بـني البشـر، علـى اختلاف قومياتهم وأديـانهم، وتبـاين معتقداتهم الفكرية وما يحملون من ايدولوجيات يختارها الانسان ويدافع عن صحتها ....

هجّر ابوك واجبر على مغادرة الوطن، بعد ان اعتقل اخوتك، لآنهم لا يصدقون بالشعارات التي يحملها ابن عمتهم الدكتور المسؤول، وماتت امك من شدة الحزن، خطبتك عمتك لابنها وتضخمت متاعبك، اخذ الشقاء يصاحبك طوال الليل والنهار ولا تجدين من يرأف بحالك، او يعطف على ضعفك وانت الغريبة، ومات زوجك وهو لم يقربك، واستقبلتك سميرة في بيتها العامر بالمحبة، وانقلب حينئذ حالك الى النقيض، شهدت الحب بعد ان يئست من الوصول اليه، ورأيت الحنان بأجمل صوره هنا مع هذه الأسرة اللطيفة، وتعرفت الى الأستاذ سامي احد زملاء سميرة في العمل، فاتخذ منك صديقة يبثها هموم الوحدة بعد وفاة الزوجة، وكيف تصبح حياة الرجل بعد ان يصير ارملا كنت تتوقين الى تحقيق امل واحد، سوف تحققين كل ما تحلمين به من سعادة ان استطعت الوصول الى الامل الذي بقي يداعب فكرك وكثيرا ما سألت نفسك التي تكثر من التفاؤل:

- هل بإمكانك تحقيق حلمك الوحيد؟
- نعم، ولم لا؟

تسألين نفسك وتجيبين عن سؤالها والحيرة تستبد بك، الى ان جاءتك العزيزة سميرة وهي تحمل لك فرح العمر:

- الاستاذ سامي طلب يدك مني! ما رأيك هل تقبلين به زوجا؟ انه رجل نبيل طيب الاخلاق، وقد لاحظت انه يكن لك حبا وتقديرا كبيرين!

لم تكوني تتوقعين ان حلمك الذي ظننته مستحيلا قابلا لأن

يتحـول الى حقيقـة ناصـعة بهـذه السـرعة! فهـل تحتـاج الاحـلام الى وقـت لجعلـها واقعـا معيشـا سـاطعا؟ تبـادرك سمـيرة وقـد قـرأت مـا يعتمل في فكرك:

- سامي يكن لك حبا كبيرا ، وقد طلبك مني! هل تودين ان يحدثك عن حبه لك طالبا يدك منك؟

- كما تشائين يا صديقتي!

- كمـا تحـبين انـت! اعـرف ان طلـب اليـد مـن الحبيـب نفسـه اجمل بكثير من طلبها من صديقة عزيزة وحتى ان كنت انا!

- انت نادرة المثال يا صديقتي!

- احب ان تعيشي سعادتك التي حرمت منها زمنا طويلا! انت طيبة وتستحقين السعادة والحب والرجل المحب وان تكوني اما!

- اللهم اسعد صديقتي الحبيبة وانلها ما تحب يا رب!

(٩٠)

تشتاق ام سميرة الى ابيها المريض، تخشى ان تقبل صحبة جارتها في عيادة الوالد ، هي تدرك ان زوجة ابيها لا توقر احدا وانها قادرة على مهاجمة كل النـاس وحتـى الـذين لا ينطقـون الا عنـد الضـرورة القصوى، نصحتها الجارة ان تصحبها في الذهاب، ولا تدخل البيت حين يفتحـون لهـا البـاب، بـل تقـف بعيـدا ، وتنتظـر ام سميرة، فإنهـا حتما تحتاج الى مساعدة:

- ماذا تفعلين ان رفضت زوجة ابيك ادخالك؟

- وهل تستطيعين انت ان تجعليها توافق؟

- ربما اقدر وهذا احتمال ضعيف!

- زوجة ابي سوف ترعد وتزبد ان وجدت معي مخلوقة غيري!

- وخاصة ان كان الشخص هذا جارتك التي تحبك!

- كل الذين يحبونني ويتخذونني صديقة لهم، لا تطيقهم زوجة ابي!

- كان الله بعون ابيك المسكين!

- لا اريد من هذه الزيارة الا رؤية ابي!

- وماذا بمقدورك ان تفعلي له لمساعدته؟

- لا قدرة لي! ماذا فعلت حين وجدته نائما في زريبة الدجاج والخراف وقد اصابه العمى ولم يعد قادرا على الكلام والسمع!

- كان قويا محترما ايام الشباب!

- كان دائم الصراخ حين كانت امي!

- وانقلبت حالته من الصراخ الدائم الى الخنوع بعد ارتباطه بزوجة الأب التي احدثت انقلابا هائلا في كل شيء! هل تتذكرين امك؟

- اتذكرها وكأنني رأيتها طيفا! جدتي تعهدتني بالرعاية بعد موت امي!

- زوجة ابيك لم تكن تطيق جدتك المسكينة!

- لاقت نفس المصير الذي أذاقوه لأبي، اسكنوها في خن الدجاج اخر سنوات حياتها، كنت متزوجة حينذاك وحين كنت ازور ابي، كنت أجد الجدة في حالة تستحق الرثاء، مرض جدتي وعجزها كان يؤلمني كثيرا، ولم استطع ان اخفف من معاناتها،

وارتاحت بعد ان ماتت!

- ابوك لم يستطع نجدة امه؟

- كانت زوجته بالمرصاد، ما ان ينطق بكلمة حتى تمطر غضبا وانتقاما، حتى انها حين تسمع من ابي كلمة لا تناسبها، تقوم بفرض حصار غذائي عليه!

- لم افهم! كيف؟

- لا تقدم له الطعام، تضع حجارة في الصحن، وتقول له تناول غداءك!

- ويظل ابوك صامتا؟

- لقد جرب الصراخ ووجده غير مفيد، وأدرك ان الناس لايتشابهون، وان امي ان كانت تصبر على صراخه المستمر، فان زوجته الجديدة لن توافق ان تكون شخصيتها مستكينة، كان كثير الصراخ على امي المسكينة، التي لم تكن تناقشه فيما يفعل، وحين ماتت تزوج من امرأة ثانية، جرب معها ما فعله مع امي!

- لم افهم! ماذا فعل ابوك مع زوجته الثانية؟

- اراد ان يقابلها بالصراخ كما فعل مع امي، لكنه وجد امرأة تختلف تمام الاختلاف عن امي، أرادت ان تروضه ونجحت؟

- لم افهم ماذا تعنين؟

- اخذت زوجة ابي تقابل صراخ الوالد بصراخ اعلى، وتقوم بالإضافة الى الصراخ بقلب مائدة الطعام بما عليها، فتتكسر الكؤوس ويرى ابي المنظر وان عاقبة الصراخ وخيمة، فترك رفع

الصوت وأصبح الصبر صديقا دائما له!

- احب النساء القويات اللاتي لا يقبلن بعدوان الرجال!

- زوجة ابي لم تكن قوية بل هي ظالمة ولم يحسن والداها تربيتها!

- ولماذا سكت ابوك عن حرمانه من الطعام؟ ولماذا لم يستعن بمطعم ؟

- لم يكن هناك مطاعم كما في وقتنا الحالي! كما ان ابي كان يستحي ان يعرف الناس ان زوجته تستبد به! هذا هو العرف، حين يكون الرجل ضعيفا يثير استهزاء الناس وسخريتهم! لهذا صمت ابي ولم يشتكي لأحد ولم يسمح بالتدخل في شؤون المنزل الخاصة!

- بالإضافة الى ذلك ان زوجة ابيك صارت تمتلك بعض السلطة السياسية، فابنها مسؤول في الدولة وعضو في القيادة القطرية، !

- ومن يتجرأ على النطق؟!

- امامه السجون والتعذيب او الاستماع الى عزف زوجة ابيك وهي تنطق بأبشع الشتائم واقذع السباب، والضحايا دائما ابرياء، ابوك منهم وزوجك الذي لا تعرفون مصيره، وابنك وابنتك سميرة وانت ايضا! كلكم ابرياء تتعرضون للظلم!

- كل الشعب ضحايا! انظري لقد وصلنا، انتظري بعيدا وسوف ادق الباب!

تكرر ام سميرة دقاتها على الباب فيأبى ان يفتح، تنتظر طويلا امامه، عله يستجيب لنداءاتها المتكررة، ولكن لا امل قريب،

فيتعبهـا الانتظـار، فتعـود الى منزلهـا وترافقهـا جارتهـا في طريـق العـودة، ولا تميـل الى التحـدث، فـان الحـزن يطغـى علـى نفسـيتها المتعبة، وتقرر ان تأتي لزيارة الأب العاجز مرة اخرى!

(٩١)

تكـرر ام سمـيرة ذهابهـا الى منـزل والـدها، للاطمئنـان علـى صحته، فلم تكن حالته على ما يروم الانسان اخر مـرة رأتـه فيهـا، وقامت بدق الباب عددا من المرات، دون ان يستجيب لها احد ويفـتح الباب المغلق، ولم تكن تدري كيف يغلقون كل شيء امام عينيهـا وامـام سمعهـا! ولمـاذا يعاملونهـا بهـذه القسـوة، وهـم يعرفـون انهـا لا تستطيع ان تفعل لهم شيئا، ربما تسـتاء مـن قسـوتهم وعـدم رعـايتهم لأبيها داخل نفسها المغمومة ولكن ان تظهر اسـتياءها امـام النـاس وتتحدث عن مثالب زوجة أبيها، فهذا أمـر مسـتحيل، لقـد اصـابها اليتم منذ أن كانت طفلة صغيرة قد رحلـت امهـا عـن هـذا العـالم، وتركـتهـا وحيـدة، اخـذ والـدها الـذي عـرف حينـذاك انـه رحـيم وعطوف يتغير شيئا فشيئا، وزوجته تشكوها اليه:

- ابنتك هـاجمتني!

- كيـف هـاجمتـك وكيـف يمكـن لطفلـة في الرابعـة مـن عمرها ان تهاجم امرأة كبيرة مثلك؟

- انـت لا تصـدقني! قـل لـي بصـراحة انـني كـاذبـة وان ابنتـك احسن البنات!

- لم اقل هذا ولن اقوله!

- وماذا تعني؟

- ما اعنيه مفهوم! كيف يمكن لابنتي الصغيرة ان تسبب لك الأذى؟ ماذا فعلت؟ هل قالت لك شيئا لا تريدين سماعه؟ هي صغيرة جدا!

- لكنها مثل امها! اخبروني انها كانت ماكرة!

- رحلت امها وارتاحت! لا تتحدثي عن الأموات بسوء!

يتعالى نحيب زوجة ابيك:

- انت ظالم! تنصر ابنتك الداهية علي! اخبروني منذ البداية ان ابنتك لا يمكن التفاهم معها!

- يا اللّه يا رحمن ....يا رحيم! من قال لك هذا؟

- هل عدت الى اتهامي بالكذب مرة اخرى؟

- استغفر اللّه، هيا قولي ماذا تريدين؟

- اريد تأديب ابنتك!

- سأتركها بعهدة امي! هل يرضيك هذا؟ ستكون بعيدة عنك! وليس بمقدورها ان تسبب لك الأذى!

- امك ايضا لا تحبني!

- وهل اقوم بطردها؟

- لم اقل هذا!

- امي هي من اختارتك زوجة لي! كيف يمكن للأم ان تختار من تكره زوجة لابنها؟

- لا احد يحبني في هذا اليت!

- وانا ايضا؟

- هل تستهزيء بي؟
- أعوذ باللّه!
- انت اعطيت امك افضل غرف المنزل!
- وهي امي وقد امرنا الله بالإحسان الى الوالدين!
- غرفتنا لا تناسبني!
- والقصد؟ ماذا تريدين؟
- ان تعطيني غرفة والدتك! الغرفة كبيرة وليست مناسبة لامرأة عجوز!
- واي غرفة تكون لأمي؟
- تلك التي في الدرج!
- وهل غرفة في الدرج تناسب العجوز التي هي امي؟
- امك اقوى مني!
- افعلي ما تحبين! لا اريد وجع الرأس!
- هل اوجع رأسك بكلامي؟ وهل تصب اللوم على عاتقي؟
- العفو لا اقصد!
- من واجبك ان تعتذر!
- لم اخطيء بحق احد حتى اعتذر!
- وابنتك؟ أ لا تقوم بتأديبها؟
- سوف اعهد لأمي ان تقوم بالمهمة!
- ابنتك تحتل غرفة كبيرة لا تناسبها!
- واين يجب ان تقيم ابنتي؟
- مع جدتها! أليست امك من يقوم بتربيتها؟

- ليكن، سوف تنام ابنتي مع امي في غرفة واحدة وان كانت الغرفة صغيرة وبعيدة عنا وتقع في الدرج!
- هذا افضل للجميع!

انقلب جد سميرة منذ ذاك الوقت الى النقيض، لم يعد يتحدث مع ابنته ويرى ماذا تحتاج ومم تشكو؟ وكانت الجدة تعتني بحفيدتها اول الأمر وبعد ان اشتدت محاربة الجدة وملاحقتها في منزل ابنها وجعل صديقات زوجة الأب يضحكن على حركات الجدة ويستهزئن بما تقوم به، قلت عناية المرأة العجوز بحفيدتها وآثرت السلامة من لسان كنتها وافعالها التي تسبب الخراب .. وكلفت ام سميرة بالقيام بكل اشغال المنزل، من طبخ وتنظيف وغسل ملابس، وبقيت مهام التسوق على زوجة الأب، حتى تستطيع ان تقتصد .. وتوفر بعض النقود ..

تذكرت ام سميرة كل هذه الامور الحزينة، وهي بالباب تكرر دقاتها عليه، آملة ان يجيبها احد فيفتح، ولكن هيهات، ورمت يدها من كثرة الدق، ولم يشفق عليها احد لينجدها ويضع حدا لقلقها المتزايد على ابيها! فاستبد بها التوتر ولم تحب ان تقول كلمة واحدة تعبيرا عما بها، فأدركت الجارة مدى حزن ام سميرة واحترمتها وظلت صامتة ..

(٩٢)

يخبرون سميرة في العمل ان جدها لأمها قد غادر هذه الدنيا ، وارتاحت نفسه من العذاب الأليم الذي اذاقوه له ، مرض في اخر حياته بعد ان فقد حواس البصر والسمع ولم يعد قادرا على الربط بين الكلمات لتكوين جملة يستفيد منها السامع معنى معينا ، لم يجد الجد العناية التي يوفرها ابناء الاسرة عادة لكل فرد من افرادها ، بقي يتطلع الى الرعاية والاهتمام ، يتذكر رغم ما حل به من ضعف ، ابنته الكبيرة التي منحته حنانها ورعايتها رغم انه لم يقبلها في بيته ، واستعان بعمها والد زوجها لتقيم في منزله وتغادر منزل ابيها ، ارغمه ابنه الكبير المسؤول ان يتنكر للأبوة ويغتال في داخله العاطفة ، التي كثيرا ما قمعها تلبية لأوامر ابنه الكبير وزوجته ، تركوا الجد لوحده في زريبة الخراف والدجاج وغادروا هم المنزل الى مكان بعيد عن تأوهات الرجل الكبير ، ينصح سميرة اصدقاؤها ان تنقل الخبر الفاجع الى امها بعناية وحذر ، فالأم رقيقة وتحب اباها وتتذكر انه كان عطوفا ايام الطفولة ، تسأل سميرة :

- لماذا يفعلون كل هذا بأمي التي لم تكرههم رغم اساءاتهم الكثيرة؟

- خوفا ان تطالب امك بنصيبها من ثروة ابيها الكبيرة!

- امي لم تطلب منهم نقودا! كانت ترجو ان تلقى الحنان من ابيها واخوتها ، كما هي العادة في كل الأسر!

- اسـرة جـدك تختلـف عـن كـل الاسـر العراقيـة في ان كـل افرادها يشتركون في حرمان اختهم الكبيرة من ثروة ابيها!

- ويدعون انهم يعرفون اللّه!

- تجردوا من كل القيم الانسانية، انتظري بعض الوقت حتى تمر الاربعين يوما على وفاة جدك وطالبي بنصيب امك!

- ومن يمكن ان يعينني ويقدم لي المساعدة؟

- استعيني بمحام ماهر وقدمي له الادلة على ان امك هي ابنة جدك الثري المتوفى!

- من يدلني على هذا المحامي؟ والعالم موبوء بكثرة المزورين!

- رغم كثرة الكاذبين والذين يمكن شراؤهم، فان الدنيا لا تخلو من اصحاب الضمائر الحية! جربي وطالبي بحق امك التي لا تستطيع بمفردها ان تفعل شيئا!

- امي اتعبها الزمان وانهكتها المعاملة السيئة التي تلقتها من ابيها واخوتها وامهم!

- كان اللّه بعونها، وعون كل امريء مسلوب الحق، قبل ان تطالبي بحق امك عليك ان تشاركي في مجلس العزاء، لست متأكدا انهم اقاموا مجلس العزاء لجدك؟ ام انهم لم يقوموا بذلك؟

- اخبري امك بالأمر واذهبي معها، ، قد يسيئون لها ان حاولت ان تحضر مجلس العزاء لوحدها!

- قد يتحول المرء الى وحش كاسر بمظهر انسان، ويحدث ذلك بفعل عوامل متعددة، وفي قصتنا لا اظن ان هناك أسباب تجعل اخوة امي وامهم يعاملون ابنتهم الكبيرة هذه المعاملة!

- قد يسيء المرء لأخيه الذي هو من امه وأبيه، ان تعلق الامر بالنقود والثروة، وامك ليست شقيقتهم، بل هي اخت لهم من اب، لم يعودوا يقدمون له الاحترام الذي يستحقه الآباء! فرحل عن العالم منبوذا ....

- امي تحب اباها كثيرا، ولا ادري كيف يمكنني ان انقل الخبر الفاجع اليها؟ وقد حرمت من رؤية والدها رغم محاولاتها الكثيرة، سوف يسبب لها معرفة الخبر آلاما شديدة!

- امك امرأة حكيمة جربت الحياة وخبرت ويلاتها، وسوف تتفهم، كما ان الموت حق علينا جميعا!

(٩٣)

يبقى منزل جد سميرة مغلقا، لا يستجيب لنداءات ام سميرة المتكررة ان تحضر فاتحة ابيها، يقول الجيران ان زوجة الأب المتوفى لم توافق على اقامة مجلس العزاء وبررت ذلك انه لا فائدة من اهدار المال في امور لا تنفع احدا، وانه من الضروري ان نصون النقود ونحافظ عليها، فهي رأسمالنا الوحيد في الحياة، وأضافت الجارة تنقل لأم سميرة ما تردد على لسان زوجة أبيها من ان الذين يقومون بإرضاء الناس ويبددون أموالهم على مجالس العزاء التي لن تفيد الميت ولا الحي بشيء، لا يستحقون احترامنا ولا تقديرنا، سالت ام سميرة الجارة:

- وهل استفسرت من زوجة ابي متى يمكن ان ازورهم؟

- لم أسأل حول هذا المعنى، انما اردت معرفة لماذا ابقوا المنزل

مغلقا؟

- وبماذا اجابتك؟

- اعـرف ان ام سمـيرة عاطفيـة سـوف تمـلأ الـدنيا عـويلا وصراخا!

- أليس من حقها؟ فالراحل أبوها!

- وماذا يفيد البكاء؟ يجدر بالإنسان ان يعتني بصحته!

- لكن الحزن على الاعزاء من شيم النفوس الأبية!

- العاطفة ضارة، ماذا يفيدنا ان بكينا وأهدرنا دموعنا في حالة الموت! التي لا دخل لنا بها؟ هل يمكن ان نعيد الميت الى الحياة؟

- لا نعيده، بل الحزن على فراق الأعزاء طبيعة بشرية!

- انا لا أتفق معك في هذا الرأي، الحزن والبكاء والقلوب الضعيفة، والرأفة بالضعفاء والعطف على المساكين كل هذه الصفات تدل على الضعف وتؤدي الى المهانة، وقد أنشأت أولادي على الابتعاد عن تلك الرذائل والتحلي بشيم الكبار الشجعان!

- وجد سميرة هل كان يتصف بالصفات التي تحرصين عليها؟

- لماذا تدعينه جد سميرة؟ وابنه دكتور كبير الشأن؟

- كيف ادعوه؟

- ابو صادق!

- اردت ان أستفسر، هل كان المرحوم ابو صادق يتمتع بالصفات التي تحبينها؟

- في بداية زواجنا أتعبني بعاطفته الكبيرة نحو ابنته، كان

يصرف عليها الكثير من المال، وحتى حين تزوجت بقي محافظا على صفاته التي سببت لي تعبا كبيرا!

- لكنها ابنته! ومن الطبيعي ان الآباء يتعبون على الأبناء ويسترخصون كل غال من اجلهم!

- لا اؤيد هذا الكلام! الأبناء يجب ان يعتمدوا على انفسهم في كسب قوت يومهم!

- ام سميرة لم يكن لها عمل تكسب قوت يومها منه! كيف يمكن الا تجد المساعدة من ابيها الذي يملك مالا وفيرا؟

- هذا خطأ زوجها الذي يدعي التقدمية! لماذا لم يجد لها عملا؟

- ولكن هذه مهمة الآباء!

- بل هذا شأن الأزواج! عليهم ان يبحثوا للزوجة عن عمل يناسب مؤهلاتها! وان كانت ام سميرة لا تملك اي مؤهلات!

تستفسر ام سميرة من الجارة:

- وهل كانت بنات زوجة ابي يملكن المؤهلات؟

- فكرت ان اطرح هذا السؤال، لكني خشيت ان تثور زوجة ابيك بوجهي وتطردني شر طردة!

- حسنا فعلت حين لم تسألي! ولكن ماذا تعني زوجة ابي حين ادعت ان ابي كان ينفق المال علي وانا في بيت زوجي؟

- لا أدري والله، قد يبيتون لك امرا!

- ماذا فهمت من كلامها؟

- قد يحرمونك من ميراث ابيك، بحجة ان والدك قد منحك

جزءا من ثروته في حياته!

- كلهم كان ابي ينفق عليهم، ولم يمنحني فلسا واحدا بعد زواجي من والد سميرة، بل انه حرمني من كل شيء قبل فترة طويلة من زواجي! حتى انني لم احظ بالرعاية التي استحقها، الا من قبل جدتي التي كانوا يسببون لها الأذى ويجعلونها اضحوكة امامهم يقلدون حركاتها وما تقوله معبرة عن افكارها، يسخرون منها ويتعالى ضحكهم على العجوز المسكينة! فلم تتحمل فماتت، وجدي اذاقوه نفس المعاملة فمات من الألم...

- ربما انهم عاملوها هذه المعاملة القاسية لأنها كانت تعتني بك!

- نعم معك حق فيما ذهبت اليه، زوجة ابي لم تحب ان يبدي احد حبا لي!

- كان الله في عونك! ماذا ستفعلين امام اناس لا يعرفون الله مهما كان ادعاؤهم بالإيمان!

- لا اريد منهم شيئا سوى المحبة التي يقدمها الاخوة لبعضهم البعض!

- المحبة لم تحصلي عليها وهذا من سوء حظك، فهل تحرمين من ثروة ابيك ايضا؟ وهل يرضي هذا الله والناس جميعا؟

- اخوتي وامهم يسعدون بحرماني وهذا يكفي، ماذا يضيرهم لو كان الناس كلهم غير موافقين على ما يفعلونه معي، وعلى انواع الحرمان التي منيت بها، منذ ان كنت طفلة في بيت ابي وحتى زواجي، حتى ان اخوتي استجابوا لامهم فحرمتني من كل انواع الرعاية، وحاربت زوجي وابنتي سميرة وتضامنت مع ابنها

الدكتور ضدي!

- انسي ما مضى من عمرك وانواع العذاب التي تشعر بها الابنة المحرومة من عطف ابيها ومحبته، ولنفكر معا في الطريقة التي تضمنين فيها حقوقك!

(٩٤)

انت بعيد عني وانا أطمح ان تساعدني، من يمكن ان يقف بجانبي مذللا الصعاب التي تعترض طريقي، مرت بي مصاعب كثيرة، مات جدي واشتد حزن امي وتضاعفت أوجاعها وهي تشعر ألا أحد بجانبها بعد ابتعادك! كيف انت وكيف تمر بك الأيام؟ انت تفكر بنا اعرف ذلك وأثق به مهما طال البعاد عنك فانت حبيبنا الغائب، الذي نتطلع الى محبته ورعايته، امي زادت احزانها بعد وفاة جدي، اتعبها كثيرا ألا يسمح لها بزيارة أبيها قبل رحيله، وهي تعرف انه أصيب بأمراض كثيرة، هدت صحته وسلبت راحته، وانه لم يحظ بالعناية التي يحتاجها ويستحقها، كانت تطلب مني ان اشتري بعض الفواكه، لجدي المتعب المريض، لأنها تعرف حجم الكراهية التي يحيطونه بها، امي تدرك ان القلوب تصدأ ويصيبها العطب ان لم تجد حبا، وان كثرة المصاعب التي يمر بها الانسان وقلة المال الذي لا يستطيع ان يسد حاجات الانسان ويحقق تطلعاته، وان كل انواع الحرمان يستطيع المرء ان يتحملها بقوة وشجاعة، الا الحرمان من الحب، فهو افظع طعنة توجه لقلب الانسان وعقله، وتسرق منه القدرة على العيش الصحيح، امي

القوية الشجاعة استطاعت ان تجتاز كل الصعاب، التي زرعوها في طريقها، لأنك كنت معها طوال الوقت، كما كنت معي فانت الحبيب الذي بقي يؤازرني طوال السنين التي اطعمني فيها جميل حبه ورائع رعايته، صبرت كثيرا يا حبيبي، وأثمر صبري الطويل زوجا محبا عطوفا، لم يحرمني من شيء يجعلني سعيدة، ولم يجبرني على الكدح طوال الليل والنهار كي اجلب له المال ويستريح هو محملا اياي كل الأعباء، استطعت ان اكرم امي بعد كل المرارة التي اذاقوها اياها، ولكن اختي سهام، لم استطع ان اقدم لها المساعدة، التي كنت ارجو ان يوفقني اللّه لتقديمها لأختي الحبيبة، صحبتها عددا من المرات، لإجراء الفحوصات التي يحتاجها مرضها اللعين، وكل مرة يقول لي الطبيب كلاما مناقضا للمعنى الذي عبر عنه في المرة السابقة، حتى ورمت قلوبنا واشتدت معاناتنا وتطلعنا الى معجزة، تأتي لتنقذ سهام من الفاجعة التي تنتظر ايامها، هي الجميلة التي لم تجد حبيبا يقف مساندا لها، انت تعرف حبيبها نزار الذي مضى الى الحرب ولم يعد، انتظرت سهام ان يعود اليها الحبيب الذي لم تشعر انها أنثى الا بقربه، ولكن انتظارها طال، ولم يتحقق املها في عودة الحبيب الغائب، وها ان عدد الأحباب الغائبين يرتفع، لتتضخم اوجاعنا وتزيد متاعبنا، فهل صحيح ان الحرمان من الحب يسبب الورم الخبيث، وان كل الفحوصات والتحليلات تقف عاجزة عن فعل اي شيء لنجدة المريض؟ ظهر الورم في صدر سهام بعد ان غاب حبيبها وطالت غيبته، فمن يقدر على مداواة القلب المتورم الذي حرمه

رحيل الأحباب وغيابهم من الحياة؟ ومن يمكنه ان يعيد للحبيبة سهام شعورها بان الحياة جميلة وتستحق منا ان نناضل من اجلها؟ من يمكنه ان يجعل سهام قادرة على الأمل من جديد، وانها عادت الى النظر الى الأيام بثقة وطمأنينة ككل العشاق؟ مات الامل في قلبها وذوت احاسيسها ان ايامها قادرة على ان تقدم لها الجمال، في اخر زيارة للطبيب المداوي قال لي:

- المرض ينتشر بسرعة!
- والعملية الاخيرة قد استأصلت الثدي يا دكتور؟
- التشخيص الاول كان خاطئا!
- والعلاج؟
- ليس لنا سوى رحمة الله!

بقيت سهام يبتسم وجهها ولكن قلبها المطعون بعدا يئن حزنا! تمنيت ان اقدم لأختي الحبيبة شيئا قد ينسيها كثرة الأحزان التي ترهقها وتدميها، ولكني عاجزة عن فعل شيء ....

(٩٥)

فكرت ام سميرة ان تقيم مجلس العزاء على روح أبيها، بعد ان وجدت ان اسرته لا تحبذ اقامة مثل هذه المجالس، وترى انها ترهق ميزانية الاسرة وتبدد أموالها، جهزت ما يلزم من مواد، ودعت عددا من النساء لحضور مجلس الفاتحة، ومرت ثلاثة ايام وزوجة ابيها لم تحضر، حضرت كل النساء اللاتي يعرفنها وقدمن للابنة الحزينة بوفاة ابيها كلمات العزاء علها ترتاح قليلا بعد فقد الأب

الذي حرمت من رعايته منذ طفولتها ، حضـرت الجـارة القريبـة مـن ام سميرة واخبرتها بما حدث من امور:

- تقول زوجة ابيك انه ليس من حقك ان تقيمي مجلس العزاء!
- لماذا؟ أليس الراحل ابي؟
- تقول زوجة ابيك انك لست ابنتهم!
- يا الله! كيف هذا؟
- قالت زوجـة ابيـك انـك فتـاة يتيمـة فقـدت أبويهـا في حـادث، ولم يبـق لهـا احـد ، فقمنـا بالعنايـة بهـا وقـدمنا لهـا كـل الرعايـة والمحبة ، واعتبرناها ابنة لنا ، سألت زوجة ابيك:
- كلنا نعرف ان ام سميرة هـي ابنـة الراحـل، كيـف اصبحت بعد رحيله غريبة عنه وكيف صارت يتيمة؟
- هـذه هـي الحقيقـة ، لتثبـت ام سميـرة انهـا ابنتنـا! هـل عنـدها أدلة؟ ان كنا نعطف عليها ، فهذا لا يعني انها ابنـة لنـا ، هـي غريبـة عنا ، اخبرني الراحل قبل سنوات انه اهتم بالطفلـة لان ابويهـا كانـا عزيزين عليه ، وحـين ماتـا في حـادث لم يبـق للطفلـة مـن يعتني بهـا ، فقام ابو صادق برعايتها وانا عاملتها كأبنة لي، ولكـن ان تطلـب حقها بثروة ابيها فهذا خطير!
- ألم تخبرك زوجة ابي متى استطاعت ان تزيحني من الاسـرة ، وتلغي ان الراحل هو ابي؟
- لم أتجرأ على سؤالها! كلنا نعرف انك ابنـة الراحـل، ماتـت امك وأنت صغيرة ، واضطر ابوك الى الزواج مرة أخرى، فأتت زوجة الأب الـتي أذاقتـك مـر العلقـم، ولكـن القضـية الـتي تحتـاج الى مـن

ينظر فيها ، من الذي سوف يدافع عن حقك في ثروة ابيك؟

- اي محامي يتصف بالنزاهة؟
- وهل تظنين ان اثبات حقك بنصيبك من ثروة الراحل سهل عليك؟
- ولماذا يكون صعبا وشهادة الجنسية تثبت انني ابنة أبي؟
- اسم ابيك عبد الله محمد محمود ، ما اسمه في بطاقة جنسيتك؟
- عبد الله محمود!
- أرأيت؟ هناك اختلاف بالاسم!
- كيف حدث هذا الاختلاف؟
- هل نسيت ان اخاك مسؤول في الدولة؟
- وهل تظنين انه زور في الاوراق الرسمية؟
- بكل تأكيد ! من ينقذك الآن من قدرتهم الظالمة؟
- هل استشير محاميا؟
- هل تعرفين من يتصف بالنزاهة والشجاعة معا كي يثبت لك حقك؟
- لا اعرف احدا ، سوف أستشير سميرة ان كان زوجها يعرف احدا ، يمكن ان نثق بقدرته على اثبات حق مسلوب!
- اللّه في عونك صديقتي! تواجهين خصوما لا يعرفون الرحمة وليس لهم ضمير!
- وهل نصدق ان الضمير كائن موجود؟
- الضمير حي عند قليل من الناس يعيشون أغرابا بين البشر ،

اما الأكثرية من الناس فلا يعرفون للضمير وجودا

(٩٦)

أمي حزينة يا حبيبي، بلغ حزنها أوجه، لم أرها بمثل هذا الألم أبدا، كنت اعجب لعظيم صبرها أمام المصائب والملمات، حين اعتقلوني قبل سنوات لم اجدها تحمل اطنانا من الألم تثقل كاهلها، كما أراها هذا اليوم، وحين اعتقلوك انت ايضا وكتب عليها ان تفارق ابنتها وزوجها في وقت واحد، لم اجدها تثقل بكل هذه الهموم! ماذا اصاب امي يا حبيبي؟ ولماذا ألاحظ قدرتها على التحمل قد نفدت؟ هل يعود هذا الى تقدمها في السن؟ ام ان تراكم أوجاع الروح قد أفقدها الكثير من صحتها؟ هل ان حرمانها من حبيبها وفراقه عنها وبقاؤها وحيدة، لا احد يؤنس وحشتها، ويخفف شعورها بالغربة، يسبب كل هذا الألم الذي أقرأ معالمه على وجهها؟ احاول انا ان اخفف عنها، ولكني اجد نفسي عاجزة عن ارجاع امي الى ما عهدتها عليه من قدرة على الصبر، وقوة على تحمل المتاعب، انا وجدت من يخفف عني، ورغم وجود زوجي النبيل معي، فأنا أشعر انني غريبة بدونك يا حبيبي، ارنو الى الساعة التي يطلقون سراحك فيها، كي أنعم بدفئك الذي حرموني منه، وأنهل من بحر حنانك الذي لا يضاهيه اي عطاء، فقدت امي أباها الذي لم يكن بجانبها ولم يمتلك الشجاعة كي يدافع عنها ضد ظلم زوجته المستبدة، كما انه لم يقدر على ارجاع حقها في ثروته وهو حي يرزق، فكيف يمكن لأمي ان تنعم بنصيبها من ثروة أبيها وهو قد فارق الحياة، ابوها لم

يستطع ان يدافع عن حقوقه ÷، فبقي صامتا وهو يحرم من الطعام اللذيذ والدواء الشافي، وجدي ايضا بقي عاجزا عن الدفاع عن كرامة والدته التي عاملوها بالهزء والسخرية، نسيت امي كل هذه المواقف، وتناست عجز ابيها عن نصرة الحق والوقوف الى جانب المطالبين به، وتذكرت انها حرمت من رؤية ابيها حين كان يتألم، والأمراش قد تألبت عليه والأوجاع اتحدت لهزيمته، تحدث امي صديقاتها عن حقوقها التي نهبت، فتقول انها لا تريد شيئا، وان ما عندها الآن يكفيها، وانها لو استطاعت ان تعيد حقها المسروق من ثروة أبيها، فماذا يمكن ان تصنع بالمال؟ هل يمكن ان تعيد به زوجها الحبيب؟ وهل يمكنها ان تطلق سراح ابنها كريم الذي لم يقترف اثما؟ وانما كان يسعى الى نصرة المظلومين والدفاع عنهم ضد من يفرحه ان يظلم الناس ويسلب حقوقهم منهم، احاول ان اجعل امي جادة في المطالبة بحقها، ولكني امام اصرارها وزهدها بالنقود اجد انها محقة فيما ترى، فهل المال وسيلة يا حبيبي ام غاية؟ وهل ما نجده من اقتتال الناس وتحاربهم من اجل الحصول على ما يملك غيرهم صواب او خطأ؟ ولماذا ينقسم الناس بهذه القضية الى فريقين متناقضين، ولماذا تكون امي زاهدة في نصيبها من ثروة ابيها؟ وهل ان جبروت بعض الناس واستمرارهم في سرقة حقوق غيرهم، من اسبابه سكوت اصحاب الحق عن المطالبة بحقوقهم؟ اجد راحتي يا حبيبي في الحديث معك، وأدرك انك لا يمكنك ان تفعل لي شيئا سوى الاستماع الى متاعبي، التي ما ان احدثك عنها، حتى أجدها وقد زالت وكأنها لم تكن، عزيزتي سهام صارت تتعايش مع أورامها، تملأ

الابتسامة وجهها وتنطلق ضحكتها وهي تتساءل:

- هل يمكن للعبوس ان يخفف أورامي؟ وهل يساعدني البكاء في معالجة أمراضي؟ فلأبتسم ما دامت الابتسامة لا تساهم في تضخم أوجاع روحي وتزايد أسقام بدني؟

اجد ان سهام مصيبة فيما ترى، فأشاركها الابتسام واضحك ملء القلب، يكفينا ما نزفنا من دماء وما أسلنا من دموع! فالحياة قصيرة وقد ملئت جورا وظلما فهل يمكن ان يعيد لنا الحقد او الحزن ما افقدنا اياه الطغاة، فلنعش ايامنا بما نملك من عواطف جياشة تحب الناس وتأمل ان يكون الحب قانونا يتبعه الخيرون دائما!

(٩٧)

تستدعى ام سميرة لدائرة الامن العامة، يخبرها الاستاذ زوج سميرة انهم يريدون ان يقابلوها، والا تعرف سميرة بأمر الاستدعاء:

- ولماذا يجب الا نخبر سميرة؟

- يقولون ان لسانها ما زال طويلا، وانه من واجبنا ان نقصه ان سمعنا كلمة منها تقولها ضدنا!

- انا اعرف سميرة، لم تتكلم منذ امد طويل!

- معرفتك انت بها تختلف عن معرفتنا بها انت زوجها العاشق ونحن خبرناها وعرفنا انها لا تضمر لنا حبا!

- حسن سوف اخبر ام سميرة برغبتكم، وأعمل على عدم سماع سميرة بأمر الاستدعاء!

- كن انت معها في المقابلة ..

تذهب ام سميرة مع نسيبها تنفيذا للأمر الذي جاء اليها ، يكون التعب والارهاق قد استنفذ قوتها ، شعرت بالدوخة حين وصلت:

- تفضلي، اجلسي هنا ..
- ما الأمر سادتي؟
- طلبنا مجيئك لنبلغك ان حكم العدالة قد نفذ بكريم وابيه!
- لماذا؟ لم اعرف ان كريما وأباه يضمران العداء لأحد!
- توقعنا هذا الكلام! كثيرا ما نتهم من قبل اصدقائكم الأعداء لنا!
- لسنا أعداء لكم، وكريم وابوه لم يكنا لكم العداوة يوما!
- نحن استدعيناك لنبلغك ان اي خبر يصل الناس بإعدام كريم وابيه قد يكلفك غاليا!
- ومن عندي انا؟ حتى يكلفني الكلام غاليا؟
- ما زالت سميرة واختها يتمتعان بالحرية وانهما يتنفسان هواء عليلا من بلادنا!
- احب هذه البلاد وتحبها سميرة واختها كما كان كريم يحبها ، وقد علمنا العزيز زوجي عشق الوطن والدفاع عنه!
- لكنكم لم يعرف عنكم انكم تحبون الوطن، فأنتم تعادون حكومته الوطنية ، لن اطيل الكلام معك ، هذه جثة كريم واريها التراب حين يحل الظلام ولا نريد احدا يعرف اننا اعدمنا مجرما خائنا!

- وأين جثمان ابي كريم؟
- بل قولي جثته! الاعداء ليس لهم جثامين بل لهم جثث نتنة!
- اين زوجي؟
- حكم عليه القضاء العادل بالإعدام؟
- ماذا جنى؟
- خائن اتصل بالدول الاجنبية
- اي دول اتصل بها؟
- لا تسألي كثيرا، دفناه بمعرفتنا، ونطالبك ان تدفعي لنا اجرة الدفن والكفن!

تغادر ام سميرة وهي تشعر بإعياء رهيب، يسندها زوج سميرة خشية من الوقوع على الأرض، يخبرها:

- سمعت ان عمي قد اذيب بالأحماض!
- ماهي جنايته؟
- لم يرتكب اثما الا الدفاع عن الحق!
- ابكي يا عمتي ولا تسمحي للأحزان ان تسلب منك طمأنينة الروح، بعد ان تصلي الى منزلك، ابكي ما شاء لك البكاء!
- ولماذا لا نخبر سميرة؟
- هذه الجريمة الفاحشة بحق عزيزين على نفس سميرة وقلبها!
- اخبرها، هل يمكن ان نخفي مثل هذه الجرائم؟
- من الطبيعي ان اخبرها، انها زوجتي وحبيبتي!
- ولتكن رفيقا بها وانت تنقل لها الفاجعة! يا ربي كم عانت اسرتنا من مصائب، الطف بنا يا الله!

(٩٨)

هل استطاعوا ان يبعدوك عني يا حبيبي؟ انت كما انت قريب من نفسي انت الصديق الذي ألجأ اليه عند اشتداد الهموم وتراكم الغيوم، انت البلسم الشافي لأوجاع الروح، ابعدوك جسدا فقط، روحك ما زالت معي، استمد منها قوتي، أتعلم منك كيف أواجه الصعاب بوجه باسم وقلب كبير، وكيف أسامح ولا انسى، النسيان ليس من طبيعتي، فهل يتساوى الطيبون والخبثاء؟ وهل يمكن ان يكون الأصدقاء والأعداء في مكانة واحدة؟ اخبروني انهم انتقموا من طيبتك وكرم أخلاقك، وانهم استطاعوا ان يحكموا عليك وعلى اخي بالموت! ولكن هل استطاع الموت ان يبعد عنا الأحباب؟ ام انهم يحيطون بنا ويرحمون ضعفنا ، ويسمعون أنيننا ، وانت قريب مني، اخبروني انهم حققوا الفرح الكبير، بنجاحهم في استئصال طيبتك، واغتيال ما تتصف به من خصال، واخي كريم ناله حقدهم، ولم يرتكب اثما فهل اعتبروك مذنبا ، ليقوموا بحرق جثمانك الطاهر؟ هكذا الفاشلون تمتد اياديهم الى الطيبين حقدا من طيبتهم التي لم يعرفوها! بكيت حين سمعت نبأ اغتيالك واخي كريم! ولكن سرعان ما جاءتني كلماتك:

- الطيبون لا يمكن ان يموتوا! ان فنيت اجسادهم، فقلوبهم وعقولهم تبقى تنير لنا الطريق!

تركت البكاء، فانا أدرك انه عاجز عن ارجاعك لأحبابك المفجوعين برحيلك، حقدهم كان كبيرا وهو يحكمون على امي

بالترمل وعلي باليتم، امي أرملة وثكلى ظلت حزينة دامعة العينين، وزوجها وولدها قد اماتهما الأعداء، بقيت تبكي والدموع تهطل بغزارة، حتى جفت دموعها وتوصلت الى ان البكاء غير قادر على اعادة الأحباب! لتطمئن نفسك اننا بخير، وان ما زرعته في نفوسنا من قدرة على مواجهة الألم شجرة باسقة تقدم لنا افياءها ودفئها وتقينا من صقيع الحياة، لم تتركنا لوحدنا نصارع امواج الكراهية، ونتلقى ضربات الخصوم، ما زالت لمبادي التي علمتنا اياها، تنير لنا الطريق، تمهده تزيل منه الأشواك، حرصت ان تجعلني قوية صامدة، وها انا يشهد الجميع بقوتي وشجاعتي، ما زالت شمسي ساطعة، فهل يستطيع المعادون ان يبيدوا ما تتصف به النفس، من عزيمة على الحياة؟ أمي لم تعد شديدة الالتياع، ادركت ان الحزن لا يرحم احدا، وان الجزع يقلب النفوس القوية الى اخرى خانعة، لا تتطلع الى الجمال، واننا يجب ان نعيش حاضرنا ونهتم بمستقبلنا، فالماضي لا يعود وقدرة الانسان تسلب منه ان بددها بالتأسف على ما حل بنا من خسارات، امي كما عهدتها يا حبيبي قوية الارادة، عزيمتها فولاذية وتفاؤلها كبير، وسهام رغم عملية استئصال الثدي ما زالت تبتسم للحياة، وتسخر من الشعور بالخيبة! انت تدري يا حبيبي اننا نستمد قوتنا مما علمتنا من دروس وما زرعته في نفوسنا من قيم، انت معنا نتعلم منك العزيمة، ولم ينجح الطغاة في جعلك تنأى عن أحبابك!

تمّت

نبذة موجزة من السيرة

نشرت المقالات في الصحافة العراقية منذ عام ١٩٦٠ وكانت حينذاك في السادسة الابتدائية

اول قصة كتبتها عام ١٩٦٢ حين كانت في الثاني المتوسط

- واصلت الكتابة في الصحف الكويتية بين عامي ١٩٧٩ – ١٩٨٦ باسم مستعار (نورا محمد)

لها ست مجموعات قصص قصيرة عناوينها كالآتي:

التمثال عام ١٩٧٦

امرأة سيئة السمعة عام ٢٠٠٥

لائحة الاتهام تطول عام ٢٠٠٧

التابوت عام٢٠٠٨

لستَ انت عام ٢٠١٢

غسل العار عام ٢٠١٧

- ولها ست روايات: الحرس عام-٢٠١٠- - - - - -

- - - - فاقة تتعاظم وشعور يندثر عام ٢٠١٤- - - - أرواح

- - ظامئة للحب عام-٢٠١٥- - - - - - - - - -

- - - - - - هموم تتناسل .... وبدائل في شهر ١٠ عام ٢٠١٥........................ وأدتك قلبي عام ٢٠١٧

- الرواية السادسة عنوانها (راحلون رغما عن أنوفهم) صدرت عن بيت الكتاب السومري عام ٢٠١٨

- اصدرت مجموعة من الحوارات أجرتها معها بعض الصحف والمواقع النتية

- تدريسية متقاعدة عملت في مجال التعليم مدة اربعين عاما في بغداد والكويت والرباط

- عملت مراسلة صحفية لإيلاف والنور الالكترونين وطريق الشعب

والزمان الورقيتين

- لها خبرة في المكتبات، عملت امينة للمكتبة عام ١٩٧٥ في مدرسة الرصافي العراقية في الكويت وفي المدرسة العراقية التكميلية في المغرب فيما بين ١٩٩٣- ٢٠٠٣

- كانت عضوة في لجان تحكيمية لمسابقات النور ومنتدى الأدباء والمرايا في القصة القصيرة والقصيرة جدا

- تنشر في الحوار المتمدن لها موقع فرعي فيه

- اختيرت افضل كاتبة في العالم العربي عام ٢٠٠٩ من قبل مجلس الصحافة العالمي

- كرمت من قبل وزارة الثقافة عام ٢٠١٠ ضمن المكرمين لحصولهم على جوائز عربية وعالمية

- كرمت من قبل عدد من البيوت الثقافية في المغرب والعراق

عضوة في الاتحادات والجمعيات التالية

- الاتحاد العام للأدباء والكتاب في العراق
- رابطة المرأة العراقية
- اتحاد كتاب الانترنت العرب
- اتحاد كتاب الانترنت العراقيين

- *كانت الشخصية الأولى في كتاب الدكتورة ناهدة محمد علي (شخصيات نسائية متفردة)*

- كتب عنها الأديب جواد عبد الكاظم في معجم الأديبات والكواتب العراقيات في العصر الحديث- الجزء الثاني.

- اورد اسمها الباحث جواد عبد الكاظم في الروائيات العراقيات في دليل الروائيين العرب

- ذكرت ضمن موسوعة مشاهير الثقافة العراقية من قبل الفنان سعد السعدون

- ذكرت نصوصها ضمن أنطولوجيا مختارات من الأدب النسوي العربي للمبدع عامر السعدي
- ذكرت ضمن نخلة من بلادي لبان الجواهري
- ذكرت ضمن موسوعة شخصية من بلادي لموفق الربيعي
- ذكرت سيرتها في أدباء من بلادي لعبد الرضا السوداني
- ذكرت سيرتها في (تجلياتهن) للناقدة لقاء موسى
- ترجمت بعض من قصصها القصيرة والقصيرة جدا الى الانجليزية والفرنسية والايطالية